آداب طالب العلم

وبعض خصائص المنهجية الحضرية
وأثرها على الثقافة

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م
جميع الحقوق محفوظة

الكويت - مدينة سعد العبدالله - الدائري السادس - ق3 - م28
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

الموزعون المعتمدون

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 4925192

أروقة للدراسات والنشر
(عمّان)
info@arwiqa.net
(+962) 64646163

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

آداب طالب العلم

وبعض خصائص المنهجية المحضرية
وأثرها على الثقافة

تأليف فضيلة الشيخ
سيدي محمد ولد محمد المصطفى الشنقيطي
الملقب بـ: الشيخ سليم
رحمه الله تعالى

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

ترجمة الشيخ سليم الشنقيطي - رحمه الله تعالى -[1]

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحابته أجمعين ، أيها الإخوة الكرام ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

النشأة والتربية :

إخوتي الكرام ، أخوكم : سيدي محمد محمد المصطفى[2] الملقب بـ (سليم) ولدت سنة ١٩٧٣م في ولاية الحوض الغربي في مقاطعة الطينطان في بلدية الدفعة ، نشأت في وسطٍ محافظ ، وحفظت القرآن وأنا فوق العاشرة ، انتقلت إلى العاصمة سنة ١٩٨٦م ، ثم التحقت بنادي مصعب بن عمير فترةً ، وأشرف على تربيتي أخي رحمه الله تعالى[3] ، ومما أفدت منه في التربية في الصغر ، قوله لي : إن التدين ليس ثوبا يُلبسُ أو يخلع .

درست بعد ذلك بعض المتون المتعلقة بالرسم وقراءة نافع ، واهتممت بالشعر .

---

(١) الشيخ المترجم له يروي سيرته وتجربته بنفسه بشكل مختصر ، فرغناها من فيديو مسجل له موجود على اليوتيوب ، وأثبتناها هنا بتصرف يسير . وقد قام بمراجعتها المشايخ: الدكتور صالح الشمري ، والشيخ محمد جدو ، والشيخ أحمد الشنقيطي ، والشيخ حسين بن أبي بكر ، والشيخ مناف الخيرات حفظهم الله تعالى .

(٢) وأسرة الشيخ تعرف في الوسط الاجتماعي الموريتاني باسم : (سيدي عبدالله) .

(٣) واسمه محمد محمد المصطفى ، شيخ وداعية ومربٍ فاضل رحمه الله تعالى ، توفي سنة ٢٠٠١م .

وكنت أُدرِّس مع الوالد رحمه الله تعالى[1] في محظرته القرآنية ، بعد ذلك التحقت بمحظرة العون[2]، ودرست فيها بعض المتون المتعلقة بالتجويد ، والفواصل ، والرسم ، والضبط ، وأخذت الإجازة برواية نافع[3] .

دراسة الثانوية في المعهد السعودي :

والتحقت بعد ذلك بالمعهد السعودي ، درست فيه الثانوية ، وكنت إذ ذاك لا علم لي بالفرنسية والجغرافيا ، فنظمت الجغرافيا في ١٠٧ أبيات ، ووجدت الفرنسية في رؤيا[4] .

ثم تجاوزت تلك المرحلة متفوقا بحمد الله ، وتعرفت على بعض الناس المتميزين ، من الطلاب الموجودين في تلك المرحلة في المعهد السعودي ، وكان لهم أثر عجيب .

ومما يعجبني في ذلك أن الصغير يحب القدوة ، فعندما نرى بعض الأشخاص يتجردون في أعمالهم ، ويخلصون ويضحون فإننا نتأثر ، فأذكر في سنة ١٩٩٠م في مخيم سنابل الخير في كيفا ، أن أحد الإخوة كان هو المدرب الرياضي ، وهو مدير المخيم ، هو الأخ محمد عبده ، وكان قليل الكلام كثير العمل ، فأعجبت بذلك .

---

(١) والد الشيخ هو محمد المصطفى من أهل القرآن ، وكان له محظرة قرآنية ، توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٠٥م تقريبا .

(٢) محظرة العون في نواكشوط تقع بجانب السوق المركزي في العاصمة المعروف محليا بسوق (كابيتال) وشيخ المحظرة هو : محمد الأمين ولد الحسن ابن عم العلامة الشيخ محمد الحسن الددو ، ولا زال هو على رأس المحظرة.

(٣) وقد أجاز الشيخَ سليم فيها الشيخُ عيسى في محظرة العون .

(٤) في ليلة اختبار الفرنسية ، رأى الشيخ رؤيا فيها اختبار الفرنسية محلولا ، فلما دخل الامتحان ، وجده كما هو فنجح فيه .

وأذكر أنه كان يزعجني في مراحل الطلب نقص القدوة في بعض الإخوة -وهو قليل - لكن كان الصغير مولعا بالكمال ، والكمال نسبي - تعلمنا هذا بعد ذلك - لكن كنا إذا رأينا تقصيراً ممن يشرف على تربيتنا ، يؤثر ذلك في نفوسنا .

وفي المراحل المتقدمة بدا لي اهتمام بالتدريس ، والدروس في المساجد ، والدروس العامة .

ومن الأشياء التي أفدتها في هذه المراحل المبكرة ، تشجيع المشايخ ، وعلمت أن التشجيع مهم ، فكان أحد المشايخ حفظه الله تعالى يدرسنا ابن بري فيقول :

يكـــون للمبتدئـــين تبصرة وللشـــيوخ المقرئـــين تذكرة

فكان يقول: ((يكون للمبتدئين)) مثل فلان ، و((للشيوخ المقرئين)) مثل فلان .

مرحلة الدراسة الجامعية :

كان بعض أساتذتنا في الثانوية يرفع معنوياتنا ، فيقول : سيكون لكم شأن، وكذلك في الجامعة ، فكان التفاؤل مهما جداً خاصة للصغير الذي لـمَّا ينضج بعد ، ولـمَّا يصلب عوده .

وبعد هذه المرحلة تخرجنا من الثانوية بفضل الله تعالى بتفوق ، وحصلنا على منحتين إحداهما للأزهر ، والأخرى للجامعة الإسلامية في المدينة ، وقد اخترت منحة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وأكرمنا الله تعالى بالجوار ، والمدينة شيء عظيم ، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا تقصيرنا في حقوق جوار حبيبنا صلى الله عليه وسلم ، والمدينة منحة ربانية .

نعـــم المدينة طيـــب أطيابها فيها النبـــي محمـــد أوابها

فيها المكارم ما يُـــمن حنينها فيها الفضائل دائـــمٌ ترحابها

فيها الأمينُ ونـــــوره وصحابه فيها الرذائل ما يرن ســـــخابُها
والمكرمات ظل ظـــــلٍّ وارف وشـــــذى الفضائل مايلين جنابها
رفـــــع الحبيب مقامهـــــا بثوائه فثوت فضائل ما يعد حســـــابها
إن المدينـــــة أنعـــــمٌ رقراقة فيها المعالي صعبهـــــا وصعابها
قامت جموع العارفين بوســـــطها يحدو بها شـــــوق الحبيب مصابها
فحياتها شـــــوق الحبيـــــب وحبها حب الحبيـــــب طعامُها وشرابُها

فقد كانت المراحل الأولى – وكل مراحلها طيبة – لم نكثر فيها المساس ولم يزل الإحساس ، أذكر أني في السنة الأولى عندما أردت أن أذهب إلى موريتانيا شق ذلك عليَّ ، فقلت :

أطيبـــــة مالي لا أحـــــن إلى أهلي أمَ أنكِ أهلُ الأهلِ في بلد الأصل
بك المصطفى والكون كل وراءه حنينَ الثـــــكالى عند حادثة الثكل
وكيف ولاء المصطفى هوالمصطفى رسول الهدى بالقسط والحق والعدل
أضاءت به الدنيا ، فأضحى ظلامها يضيء سناه الرحب في الوهد والسهل
فطارت له كل القلوب وباركت لرؤيتـــــه كل الخلائق عن عجل

كانت الدراسة في الجامعة الإسلامية فرصة عظيمة للتعرف على كثير من أفاضل المدينة ، من طلاب العلم ، ومن الأكابر الأفاضل .

وأهل المدينة فيهم صفات الأنصار ، يحبون من هاجر إليهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . هذه أمور يشهدها الغريب ، فيجد من يؤويه ومن يخدمه ومن ينصره .

بعد التخرج من الجامعة :

تخرجت من الجامعة الإسلامية سنة ١٩٩٧م ، وكنت خلال دراستي في الجامعة الإسلامية أدرِّس في تحفيظ القرآن ، كنت في حلقة لتحفيظ القرآن الكريم متطوعاً فيها ، وبعد ذلك التحقت بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك التحقت بمدرسة في المدينة المنورة اسمها : دار الفتح ، فيها نخبة من الفضلاء النبلاء ، وكانت مدرسة للجالية الشنقيطية ، وكانت مدرسة مباركة ، ومما أفدته فيها كيفية تعليم الصغار ، وقد كنت قبل ذاك أميل إلى النخبوية خاصة في البلد؛ لأني أتعامل مع الطلاب النخبة ، أو مع عامة المجتمع في الفرص العامة، ولكن عندما جئت إلى هذه المدرسة كلفت بالتوجيه والإرشاد ، وكان الطلبة إذ ذاك صغاراً، وأذكر أني أفدت ، واكتشفت : أن الطلاب يتأثرون بالقصة ، يتأثرون بما فيه خيال ، يتأثرون بالتلقين ، فقد كنت أكرر للمجموعة العشرين أو الأربعين حديثاً واحداً فيحفظونه ساعتهم ، يحفظون الكثير من هذه الأحاديث بهذه الطريقة: أقرأ الحديث ثلاث مرات ثم يقرؤه الذي بعدي ثم الذي بعده فيحفظونه، أو الأبيات من الشعر أو الأشياء الجميلة ، وهكذا أفدت من هذه القضية ، ثم إني أشرك الطلاب معي ، فأسألهم عن معاني القصة ، ومعاني الأحاديث فأجد أجوبة ناضجة عظيمة حتى من الصغار .

ومن المواقف التي مرت في هذه المدرسة ، التي تدل على أهمية الوقف ، أنه في أحدى السنوات تعطلت رواتب المدرسة والناس في أوضاع صعبة ، لكن المدرسين جميعاً أجمعوا أن يبقوا وهم يدرسون القرآن محتسبين ، ولو لم يأت الراتب مطلقا ، وكان من فضل الله أن المبنى مملوك ولم يكن مستأجراً ، فلو كان هذا المبنى مستأجراً لأُغلِقت أبواب المدرسة ؛ لأن صاحب الإيجار لا يتطوع،

والمدرس يمكن أن يتطوع . ومن الأشياء التي أفدتها في هذه المدرسة ، أنها كانت فيها الأُخوَّة الصادقة ، وفيها الإيثار ، فمن غاب يُخلف ، ومن أخطأ يُسامح ، والكل يحب الآخر .

وكان في تلك الفترة أماسٍ أدبية انتفعنا بها ، وبدأ فيها بعض الشباب ، فصاروا الآن من فطاحل الشعراء بفضل الله سبحانه وتعالى ، ومنهم الأخ الذي نشرتم له القصيدة في رثاء القارئ محمد أيوب ، الأخ محمد عالي خوياتي وآخرون، وأذكر أن أهل المدرسة لما ودَّعونا بعد ذلك بسنوات ، نظمتُ قصيدتي في الوداع، فكانت القصيدة يخنقها البكاء ، وكذلك كان المدرسون يبكون، والطلاب كان الكل يبكي على الآخر ، وكانت سنواتنا عظيمة وجميلة جداً ، واستفدت من معاني الإيثار والحب ، ومن معاني عظيمة كانت موجودة كالتضحية في العمل. كانت تجربة ماتعة رائعة .

السفر إلى الكويت :

بعد ذلك ذهبت إلى الكويت ، درَّستُ فيها سنتين ، وتعرفت على نخبة من الأفاضل من الشباب الرائع تعلمت منهم الأخلاق ، تعلمت منهم كثيراً، آووا ، ونصروا ، وأكرموا ، وأحسنوا الظن ، وكانت فترة من الفترات الجميلة، التي استمتعنا فيها بأخوة صادقة ، وحب في الله سبحانه وتعالى ، وتعاون على البر والتقوى ، وكانت جميلة ، سواء الأخوة الذي تعرفنا عليهم من الأخوة الموريتانيين ، أو من الأخوة الكويتيين ، وما زال الهوى والحنين موجوداً ، وقد سجلت قصيدتي الوداعية في الكويت :

جمرٌ من القلب في أحشـــائه ضرمُ يمده المســـك والأزهار والعلم
يحدوه شـــوق الهوى قد ضمه ألم قد زانـــه أمـــلٌ أفراحه قمم

يفـــــارق الخل فيهـــــا إلفه زمنا إن الحيـــــاة جميعـــــا كلها عدم
من يجتمع يفترق من يحي سوف يمت فالكل ماض وهذا الدرب مزدحم
لكنَّ ســــــلوتنا أنتـــــم أحبتُنا والحب يبقى ويفنى الحال والكلم
منّـــــي إليكم أزاهـــــيرٌ معطرة فيها الأقاحي وزهر الروض يبتسم

كانت الكويت فترة جميلة في حياتي .

السفر إلى الدمام والتدريس فيه :

بعد ذلك ذهبتُ إلى مدينة الدمام ، في المنطقة الشرقية من السعودية ، فهي منطقة رائعة وتعرفت على الكثير من الفضلاء فيها ، درَّست في مركز اسمه : مركز منار الهدى ، تابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي ، وكان يديره الشيخ سعد الغامدي وهو رجل فاضل من القراء المشهورين الفضلاء النبلاء ، وكانت هذه المرحلة مرحلة مهمة جداً ، خاصة في مجال التدريس العلمي ، فقد هيؤوا لنا مكانا طُبِّقت فيه مناهج المحظرة الموريتانية ، أو ما أمكن منها ؛ لأن التجربة قصَّصَتنا ، ومن الفوائد : أن التجربة تقصص الطموح . لا بد أن يقسِّطُ الإنسانُ طموحه ؛ حتى لا يُفجأ ويحبط ، قد وُضِع لنا مناهج كبيرة ، كانت أكبر من همنا ومن واقعنا، وقصصتنا التجربة حتى رسونا على منهج كنا ندرسه للطلاب ، وكان الطلاب نُزّاعاً يأتون من كل مكان ، وقليل منهم من يستقر حتى يأخذ شيئاً كبيراً ، ولكن بفضل الله سبحانه وتعالى ، أن بعضهم ختموا بعض الكتب الكبيرة ؛ كألفية ابن مالك[1] ، وقد يوجد منهم من ختم المراقي[2] ، أما الكتب المتوسطة والصغيرة ، يمكن أن تكون قد خُتم بعضها عشرين مرة وأكثر ، أو عشر مرات ، وقد منّ الله

(١) ألفية ابن مالك في النحو .
(٢) ألفية مراقي السعود في الأصول .

سبحانه وتعالى علي بنعمة التدريس ، درَّست كثيراً من العلوم ، حتى العلوم التي لم يكن لي بها صلة درست كثيراً منها ، وتطفّلت على تدريسها ونفعني الله سبحانه وتعالى بها ، وبيّنت بعض الإشكالات التي فيها ، وفي وسط هذه المراحل عموماً بعد الجامعة تتلمذت على كثير من المشايخ ، وطلبة العلم في بعض المتون التي لم أدرسها في فترة المحظرة ، وهي كثيرة ، استدركت بعضها وأذكر أني درست لامية الأفعال مرتين . درست على الشيخ محمد جدو ، والشيخ محمد المختار درست عليه الجوهر المكنون ، وأظن أني درست عليه أيضا السلّم والوقاية ، وأفدت منه كثيراً في جواره هنا في المنطقة الشرقية ، وآخرون من الشباب أفدت منهم كثيراً، وأفدت كثيراً من علم الشيخ محمد الحسن الددو في أشرطته أو في أسئلته ، ولا شك أيضا أني ممن استفاد كثيراً من عمل الشيخ ، ومن سيرته ومن بعض صحبته، والشيخ من فقهاء العصر حفظه الله ورعاه ، وأفدت من آخرين .

ومن الأشياء التي كنت أحبها أن نتكامل جميعا ، وأننا إذا كنا طلبة للعلم في أي مكان ، ينبغي أن يدرس بعضنا على بعض ، وأن يستفيد بعضنا من بعض ، وهذا مما يزيل الحساسية ويطورنا جميعاً .

وأرى أنه من خلال التجربة المتواضعة ، أننا في منطقة الخليج أو في المناطق النائية ، التي لا تغري بالتطور ، نبقى على مستويات ولا نتطور ، نحتاج لبعض الطلاب ولبعض المنافسة ؛ لأن الإنسان في هذه البيئات لا يجد نفسه منافساً كثيرا، فهو يسود العوام ، أو يسود الناس العاديين ، إذا حفظ من الشعر أبياتاً ، أو حفظ من العلم شيئاً يحصل على ما يمكن ليُقنع به العامة ، وبعض الناس لا يتطور ، يحتاج الناس أن لا تخدعهم هذه الأمور وأن يتطوروا .

ومن خلال تجربتي في التدريس ، وتجربتي في الحياة وجدت : أن الحياة

تحتاج إلى صبر ، وأننا في بداياتنا كنا نظن أن دفع السيئة بالحسنة سهل ، ولكن لما دخلنا معترك الحياة وجدنا أن الصبر صعب .

وأذكر أنه من الأشياء المفيدة ، أن يحفظ طالب العلم المستطاعَ ، ومن الأشياء المفيدة كذلك المطالعة الواسعة لطالب العلم ، وأن يحاول أن يصبر نفسه على أن يختم الكتب ، ولست أنموذجاً في هذا لأني يصعب علي ختم الكتب ، كلما بدأت كتاباً قلما ختمته ، لكن قد تتهيأ الفرص للمطالعة في بعض الأزمنة ، والمطالعة والتدريس من أهم الأشياء التي ينتفع بها طالب العلم .

فترة إقامتي في الدمام تعرفت فيها على كثير من الشباب الفضلاء من جاليتنا الكريمة ، كانوا نعم الأهل ونعم الأخوة ، غمروني بفضلهم وإحسانهم ، وكل المراحل التي مررت بها كنت مع الفضلاء والنبلاء وهذا من فضل الله علي .

طبعا من ناحية الدراسة النظامية بعد الجامعة الإسلامية حصلت على دبلوم عالي في الدعوة الإسلامية من المدينة المنورة ، وحاولت إتمام جامعة القرآن الكريم ولكنهم رفضوا ذلك ، وقدر الله سبحانه وتعالى أن دراستي النظامية تأخرت حتى سجلت بعد ذلك في جامعة أم درمان ، وأخذت الماجستير قبل ثلاث سنوات تقريباً ، في : ((المحضرة الموريتانية وأثرها في الثقافة الإسلامية)) وهذا مما ينبغي أن يستفاد منه : أن الإنسان قد يعوقه التأخير ، وفي كلٍّ خير . عندما جئت الكويت سنة ٢٠٠٠م أو ٢٠٠١م ، كنت على مشارف الماجستير، ولم يكن بقي إلا بحث تكميلي ، فقد تأخرت كل هذا الزمن وإن كان في التأخير خير ؛ لأن جانب التدريس كان أوثق في نفسي من الشهادات مع أهميتها ، لكني تأخرت كثيراً في الدراسة . الآن صرت من أهل الشيب والأربعين ولـّما أنهي الدكتوراه، ولذلك ينبغي لمن يسمع أن لا يشتغل بالهوامش ، وأن يواصل ؛ لأن

الهوامش تعيق في الحياة ، ينبغي للإنسان أن يستعين بالله ويستمر في أي مشروع حتى ينهيه، ولا يتأخر .

ومن الأشياء التي أفدتها في مسيرتي : أن الحياة مدرسة ، وأن البشر بشر يختصمون ويصطلحون ، ويحبون ما يُحَب ويكرهون ما يُكره ، ويحبون الاهتمام ويحبون الاعتذار ، وأنهم يعروهم ما يعرو البشر ، خطّاؤون ، وأفضلهم التوابون . وأنّ أفضل شيء في هذه الحياة وأكرمه على الله هو الدعاء ، وأكثر شيء في جلب السرور ودفع الشر هو الدعاء ، وأحلى شيءٍ عاقبة هو الصفح والعفو .

تعلمت أن الطراوة طيبة لكن الحياة مدرسة ، كانت الأمور في كل المراحل فيها كثيرٌ من فضل الله سبحانه وتعالى ، وستره وتيسيره ، وإجابته للدعاء ، وفضله وغناه ، ورحمته وبركته وخيراته ، مع ما يصحب ذلك من التقصير الكثير ، وفي مراحل الحياة يتعلم الإنسان كثيراً من المعاني ، قد يخيل للإنسان بادي الرأي أنه في مقام هو ليس فيه ، قد يأتي الإنسان إلى جوٍّ جديد لم يتعوده ، أذكر أني قلت أبياتاً في الكويت :

بك اعتزازِيَ لا بالمال والنسب ... فرج كروبي ويسِّرني لمطَّلبي
إني كسير وجبر الكسر عندكم ... رحماك رب الورى من فتنة العطب
من فتنة المال من حب الظهور هنا ... بين الأناسي ضعاف العرض والطلب
من الركون إلى الدنيا وزهرتها ... من الأكاذب من لهو ومن لعب
فاجعل مرادِيَ وجه الله في أمل ... أرجو النجاة وأخشى صولة اللهب

يبدو لي مع تواضع معرفتي أن اجتزاء التراث الإسلامي من أسباب كثيرٍ من الخلل الفكري والمنهجي الموجود في الساحة ، وأن الناس كلما تعرفوا على الكتاب والسنة وأقوال السلف وتراثهم ، وعرفوا من ذلك كثيراً تشبعوا بالثقافة

الإسلامية العالمية الشاملة ؛ كان تصورهم أكثر وضوحاً . إن ظاهرة التقليد موجودة في المذاهب الفقهية ، وموجودة في المذاهب الفكرية ، وإن طالب العلم والداعية لا بد أن ينطلق من الكتاب والسنة ، ويتحرر من عقدة التقليد ، ومن الأشياء المعلومة وأنا إذا قلت اكتشفت ، إنما أرى الواقع ، وإنما هذا ليس اكتشافا إنما هو رؤية واقع ، كلما ابتعدنا عن الأجواء الإيمانية والربانية والذكر والعبادة تخطفتنا الشياطين ، والجماعة بركة .

أستميح إخوتي الكرام عذراً ، أن أكتفي بهذه الدردشة البسيطة ، في هذه الليلة الجميلة معكم ، وأن أدع المجال لإخوتي الكرام ، لعلهم يثيرون أمورا أخرى أكثر أهمية مما لمحت إليه ، وتحدثت عنه .

وأستميح السامعين عذراً ، في عدم ذكر أسماء ، خاصة كثيراً من مشايخي الكرام ، الذين لهم حق الذكر ، لم يدركني الوقت ، وكذلك أيضاً ما حصل في الحديث من الإجمال ، وللتفصيل وقته . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفاة الشيخ :

في عيد الفطر من العام ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م ، مرض الشيخ مرضاً باطنياً شديداً ، كافحه بالأدوية والمسكنات ولم يفد إلا في تخفيف بعض الألم ، وفي نهاية يوليو من نفس العام حجزه الأطباء في مستشفى الملك فهد في المدينة المنورة ؛ لإجراء الفحوصات وتقييم حالته ، ثم أجريت له عملية جراحية ناجحة ، ولما يخرج من المستشفى ، وفي يوم السبت ٦ أغسطس بعد صلاة الظهر مباشرة أغمي على الشيخ – مصابا بجلطة في الرئة لم يكتشفها الأطباء – ثم صحى بعدها بقليل، ثم عاودته بعد صلاة المغرب ، ثم صحى بعدها بقليل ، ثم دخل في غيبوبة بعد العشاء ، ساعتها فقط أدرك الأطباء أنه أصيب بجلطة في الرئة لكنهم أدركوا ذلك

بعد فوات الأوان ، فقد أخذ الله أمانته بعد صلاة العشاء ، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه .

فكانت وفاته في طيبة الطيبة ، في مستشفى الملك فهد يوم السبت ليلة الأحد الساعة ٩:٠٥ بعد العشاء ٦ أغسطس ٢٠١٦م .

رثاء الشيخ سليم رحمه الله تعالى

ما إن انتشر خبر وفاة الشيخ رحمه الله تعالى حتى توالت المراثي من طلاب الشيخ ومحبيه ، بين ناثر وناظم . فوثقنا لكم هنا بعضا منها ، مما وصل إلينا ، ولعلنا نستوعبها في كتاب مستقل ، نتحدث فيه عن حياة الشيخ بشكل أوسع وأشمل من هذه الترجمة المستعجلة المختصرة :

أولا : شهادة الشيخ العلامة محمد الحسن الددو للشيخ سليم – رحمه الله تعالى – :

أعزيكم إخوتي وأخواتي في أخي الكريم الحبيب ، أبي عبدالله سيدي محمد ولد محمد المصطفى الملقب بسليم – رحمة الله عليه – فقد عرفته شابا صغيرا في بدايات بلوغه ، حافظا لكتاب الله ، مقبلا على طلب العلم ، ومشتغلا بالجد والتشمير والدعوة ، وقد رباه أخوه الأستاذ محمد ولد محمد المصطفى – رحمة الله عليه – فترك فيه بصماته ، في زهده في الدنيا وإقباله على الآخرة ، وسعيه لإعلاء كلمة الله ، والتمكين لهذا الدين ، ثم أتيحت لي فرصة الإشراف عليه بعد ذلك في دراسته بالجامعة ، فكنت أنا المستفيد من الإشراف عليه ، وكان التلميذ هو الشيخ ، فكان بمثابة شيخي يذكرني بالله سبحانه وتعالى في كل تصرفاته وفي أقواله وأفعاله .

درس في المدينة في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشديد الحب لمدينته ، وشديد الحب لسنته وللقرآن الذي أنزل عليه ، ولدعوته ، وقد عرف من بين إخوانه بالصدق واستجابة

الدعاء ، والزهد في الدنيا ، والورع وكف الأذى ، فكان غاضاً لبصره عفيف اليد واللسان ، وكان مقبلا على شأنه ، فلا يفتر عن قراءة القرآن فهو يقرؤه في كل حالاته ، يطيل الجلوس في المسجد ، في انتظار الصلاة بعد الصلاة وبالأخص في الحرم النبوي ، يُكثر الاعتكاف والقيام وتعليم الناس ، يهتم بشأن هذه الدعوة ويبذل لها وقته وراحته ، - ولا نزكي على الله أحدا - ، فعرفته بالصدق والزهد والأمانة ، وبالقريحة والذكاء والحفظ والاشتغال بالعلم والاهتمام به ، وكان مهتما بمختلف جوانبه ، فكان أديبا يحفظ الأشعار ، ويروي الأخبار ، وكان كذلك مهتما بالتواريخ والعبر ، وكان مهتما بالفقه والأصول ، وكان مهتما بالنحو واللغة ، وكان مهتما أيضا بعلوم الكتاب والسنة الخادمة لهما .

وعندما تخرج من الجامعة الإسلامية بذل جهده في التعليم ، فكان أغلب وقته معلما للناس ، فكان يعلِّم في كل مكان حلَّ فيه ، سواء كان ذلك في بلاده ، أو في الكويت أو في السعودية في غربها وشرقها في كل مكان يحل فيه يحل العلم معه والتعليم ، والسعي لإفادة الناس والحرص عليهم ، ويجد الناس فيه من التواضع ولين الجانب والبساطة وطلاقة الوجه وكرم اليد الشيء الكثير ، وكان بيته في المدينة مأوى للحجاج والمعتمرين والزوار والدعاة وكان كريم الضيافة .

وكان كذلك قائما على الأرامل والفقراء من أهل جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ساعيا في خدمتهم يبذل في ذلك وقته وجهده وماله ، ومن غريب ما عرفت فيه أن الله سبحانه وتعالى لم يجعله من رجال هذه الدنيا ، بل زهّده فيها ، وحال بينه وبين أن تصل إلى قلبه ، فكان في كل عام إذا انتهت الامتحانات ورجع الطلاب إلى أهليهم ، وقد جمعوا الهدايا والأموال لقضاء الإجازة بين أهليهم ، في كل عام - غالبا - يُسرق ما معه من النقود والهدايا ، وفي أغلب الأحيان تسرق

أوراقه وإقامته وجوازه وتذكرته ، وكان على ذلك صابرا محتسبا ، لا يلقاه الإنسان إلا راضيا مبتسما ، وقد عرفته بذلك ، ومن الغريب فيه أنه كلما نال شيئا أو حظا من هذه الحياة الدنيا لم يمتَّع به إلا قليلا ، وكان زاهدا فيها وفي كل متاعها .

وقد عرفت علاقته بوالديه الكريمين ، بوالده العابد الزاهد ، ووالدته الكريمة ، وقد كان أخوه محمد يحدثني عنهما – رحمة الله عليه – : هما يبراننا أكثر من برنا بهما . فبرهما بأولادهما أكثر من بر أولادهما بهما ، وذلك لحسن أخلاقهما وحسن تربيتهما .

والأخ سليم – رحمة الله عليه – ممن يترك آثاره وبصماته على كل مجاور له وكل ملاق له ، فكل طلابه يحبونه حبا شديدا ويجلونه ويقدرونه ، وكذلك كل أصدقائه وأحبته .

وبيني وبينه علاقة خاصة خصوصية من المحبة العظيمة ، فلا يعدني إلا أخا ، ولا أعده إلا أخا أو أقرب من ذلك ، وكان – رحمة الله عليه – دائما مستعدا للخروج من هذه الدنيا وللانتقال منها إلى الدار الآخرة ، حتى أنه في مرضه الذي توفي فيه رأى رؤيا عجيبه ، وهي مسجلة بصوته – رحمة الله عليه – ، رأى فيها أن البحر ماج هاج ، وفاض على الناس ، وأنه كان معه بعض الأخوة الدعاة يذكر منهم فضيلة الشيخ : الشيخ ابن سيدي الحاج ، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد المختار ابن محمد المامي ، وأن الموج لما طم ووصل إلى قدر قامات الناس أو فوق ذلك ، غرق هو في الماء حتى وصل إلى أعماقه ، وكان يفكر في الأخوين الذين كانا معه فلم يدر أين ذهبا ، وكان لا يشتغل بشيء غير الذكر فكان يقول : لا إله إلا الله، لا إله إلا الله . . فيكثر من ذلك ، ثم لما وصل إلى الأعماق رُمي به إلى شاطئ الأمان وبر الأمان ، وهذه الرؤيا مبشرة ، تفسيرها : الموت الذي ذهب به عن

إخوته ، ومبشرة أن إخوته من بعده يسلكون هذا الطريق ويستمرون عليه ، نسأل الله أن يثبتهم عليه ويوفقهم له ، وأنه هو ناج ولله الحمد في الفرقة الناجية، فبرُّ الأمان الذي وصل إليه هو النجاة ، وقبل ذلك لا بد من امتحان العقبة ، وذلك بالموت الذي مثَّله الغرق في هذه الرؤيا .

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يبارك في ذريته وأولاده وأن يجعلهم مثله .

ثانيا : مراثي شعرية من بعض محبي الشيخ وطلابه :

القصيدة الأولى : في رثاء الشيخ سليم

بقلم الشيخ : سيدي محمد بن محمد المختار حفظه الله

ما للأمانيِّ حـــــسرى في تهاديها ... وكـــــنَّ قبلُ جيـــــادا في تعاديها

ما للظلام تجلَّى الكـــــونَ مدَّرعا ... من الصوارفِ أطـــــمارا تواريها

بينا نمنِّي النفـــــوس وهي راتعةٌ ... تختالُ في حلل مـــــن الهوى تيها

تجني قطوفا من الـــــوداد دانيةً ... وتبتني من بـــــروج اللهو عاليها

اذا المقادير تغتـــــالُ المنى مزعا ... فتترك الساح تســــــتدعي بواكيها

هي المقاديرُ تجـــــري طوعَ بارئها ... من ذا الذي يستطيعُ أن يباريها ؟

الله قدَّرهـــــا ، فهل مشـــــيئته ... تـــــرد أم حيثما يشـــــاء يجريها ؟

فما لنـــــا غيرُ إســـــلام الزمام لها ... أو نرمي النفسَ تردى في مهاويها

بينا نســـــيم النفوس في مراتعها ... في مرج غفلتها ، بالسُـــــكر نغريها

نعى النعاةُ لنا بـــــدرَ التِّمام ، فهل ... حلما رأت أم شهودُ النعش يكفيها

نعى النعاةُ لنـــــا كهفَ العفاة ونبـ ... ـــــراس الهداة إِذا الظلام يعميها

نعى النعاةُ ســـــليمَ القلب طاهره ... نجل الكرام كريم النفس صافيها

سليمُ عشتَ سليم العرض محتكرا ... من المعـــــاني قاصيهـــــا وثانيها

من للمحابر أو مـــــن للمنابر أو ... من للمحاظر يسقي العلم صاديها ؟

من للمحاريـــــب يرويها بعبرته ... من هدأة الليلِ بالسجود يحييها ؟

من للتدبر أو مـــــن للتفكر أو ... من للتطهر مما قد يدسِّـــــيها ؟

من للهواجر مـــــن للذكر يقرأه يرتِّل الآي تعظيما وتنـــــزيها؟
من للمناســـــك يوفيها ويحسنها مـــــن للأخوة بالإيثـــــار يعليها
من لليتامى وإنقاذ ابتســـــامتهم من للأرامل بعـــــد فقد مؤويها؟
من للوشائج والأرحام توصل، من يعود مرضاه كلهـــــا ويرقيها ؟
هذي مآثـــــرك اللائي حليت بها ســـــيقت إلى غيرها رمزا وتنبيها
سليم قرنك قرن السابقين، فلن تطيق عيشـــــا بقرن لا يضاهيها
فالحق بقومـــــك تحيا بينهم جذلا وخل دار ســـــواهم بل وما فيها
نم بالبقيع قريـــــرَ العين مغتبطاً بجـــــيرةٍ من كرامٍ عنـــــد باريها
بجيرة كنت تســـــعى للحاق بهم بعزمة منك لا تســـــطيع تخفيها
فها بها أنت أدركت اللحاق ،فقل الحمـــــد لله مجريها ومرســـــيها
والله يوريـــــك الفردوس قربهمو والنفس في وفـــــد من تحب يحييها
ويعصم الأهـــــل والأبناء بعدكم وينـــــصر الأمة الغـــــرا ويهديها
صلى وســـــلم بارئُ الأنام على من كان أســـــوتك المثلى وهاديها
وآله وكرام الصحـــــبِ قاطبة وتابعيهم مـــــدى الآباد يزجيها

القصيدة الثانية : شيخنا المحبوب ، ساكن القلوب.

بقلم : حسين بن أبي بكر محمد سعيد

هذه قصيدة رثيت بها شيخ الشباب ، وعالم الفتيان ، وعلم الدعوة والإرشاد، وينبوع الفضائل والمروءات ، شيخي وأستاذي وحبيبي ، فضيلة الشيخ الجليل، العالم النبيل المتفنن ، الشيخ سليم الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ، كتبتها قبيل المغرب ، بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في الرابع من ذي القعدة عام ١٤٣٧هـ يوم الأحد ، واعلم رعاك الله أني ما كتبتها إلا بعد أن أخرسْت القلب ، وأبكمت الروح ، وكتمت الأنفاس ، وقتلت الإحساس ، فتَأَتَّى بعد لأي وعنت هذا القدر من الكلام ، فليقبل على هناته والمقصود هو المكنون :

ادمِ المآقي بدمـــــعِ العينِ ملتهبا ... واحزن فديتُكَ إنَّ الحُزن قد وجبا

قف ساعةً صاحِ وارجع كرتين إلى ... ما قيل طرفَكَ علَّ الصوتَ قد كذبا

من البلايـــــا سرورٌ لا دوامَ له ... يقضي بقطعِ المنى عن قلبِ من رَغِبا

وهول خطبٍ عظيم من فظاعتِه ... أضحى على جِدِّه قد شَابَهَ اللعبا

دنيا تَقَلَّبُ تُفنـــــي كلَّ ذي مقةٍ ... وتقطع الوصل تُهدي الهُلْكَ والعطبا

دنيا بُلينا بها تُمـــــسي على خطرٍ ... فيها النفوس حذارَ الموتِ أن يثبا

لكن إذا حـــــان حَيْنُ المرءِ لا حذرٌ ... يغني وليس يُـــــرى المقدور منقلبا

تخيَّر الموتُ أغلى مـــــن حفلتُ بِهِ ... فاجتاله بغتةً والعقلَ قد ســــــلبا

شيخَ المكارم بحر الجود من عرفت ... على يديه الجمـــــوع العلمَ والأدبَا

من كان في الزهدِ والتقوى منارَتَنا ... فكانَ سيباً من الأخلاقِ منسكبا

من للفضائلِ يحييهـــــا ويبعثُها ... ينيرُ ليلَ الورى مـــــن بعدِ ما وَقَبا

من للمعارفِ من نحوٍ ومصطلحٍ ومن لتفســـــيرِ طَه والنَّبا وسَبا
أين الذي قد نحا نحوَ الأصولِ إلى أنْ زين الشرحُ منه روضَها الخَصِبا
وكان يرعى بعـــــين الحبِّ طالبه يحذيهِ ينشـــــئُ في أعماقِهِ الطَلبا
رحلتَ قـــــرةَ عيني فانطلقتُ على وجهي أهيمُ يتيمَ القلبِ مضطربا
مضيتَ شيخي حبيبي والدي فمضى مَعْكُم سروريَ فاليوم السرورُ هبا
لكنني أسأل المولى لكم غرفَ الــ ـفردوس مع خير خلق الله والنجبا
والله يجمعكم فيهـــــا بنا وبمن يحبكـــــم فاللقا مـــــا زال مرتقبا
نم في البقيـــــع قرير العين يا رجلا أعطى وضحَّى ولاقى الهم والنصبا
أقول هذا وعـــــذري في ركاكة ما كتبت أني أناجـــــي درة الخطبا

القصيدة الثالثة : نعمَ الدَّلُّ والسمتُ المهيبُ

بقلم الأستاذ : محمدن الرباني

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .

هذه قصيدة ، كتبتها اليوم في رثاء أخينا وشيخنا ، الشيخ فقيد الأمة ، الأستاذ سيدي محمد بن محمد المصطفى الملقب سليم رحمة الله عليه :

تمهل أيهـــــا الناعـــــي المريبُ فمـــــن تنعاهُ مســـــكنُه القلوبُ
فـــــلا تُهلك نفوســـــاً صالحات إذا منك النثا ســـــمعت تذوب
ورُحمى باليتيـــــم وذي اعتلال وحوجـــــاءٍ تُدهْدِهُهُم خطوب
ورحمـــــى بالغويِّ يتيـــــهُ حتى يلاقي الشـــــيخ للمولى يؤوب

ورحمـــــى بالجَهولِ يَعـــــبُّ عباً ... بحورَ العلمِ ليـــــس لها نضوبُ
ورحمى بالـــــذي أصْمَته بلوى ... ومســـــعفه تغيِّبه شَـــــعُوبُ
فكلهـــــم إذا ســـــمعوك قالوا ... بفيكَ التربُ يا نـــــاعٍ وطوب
ســـــليمٌ إن قضى نحبًا سَنَهْلِك ... وإن نســـــلم تدم أبـــــدا ندوب
ســـــليمُ القلبِ أبلـــــجُ ألمعيٌّ ... ســـــليل أماجدٍ شـــــهمٌ أريب
أليفٌ مســـــعفٌ نَـــــدُسٌ أنيق ... لطيف الروح مســـــكنه رحيب
وإن ينطُق يسِـــــل عسلٌ مصفى ... ونعم الدلُّ والســـــمت المهيب
بقيـــــة صالح الإســـــلام يحكي ... جُنيدا في الحضـــــور وإذْ يغيب
يغالـــــب دمعه والدمع ســـــيل ... جُحَافٌ والنشـــــيجُ له ضروب
مخافةَ ربّـــــهِ طـــــورا وطورا ... على أحـــــزان أمتنـــــا يصوب
لئن أودى لمـــــا أودى جزوعا ... ولم يلمـــــم بمنقصـــــة تعيب
وقـــــد أبقى من الأمجـــــاد صيتا ... لـــــه في كل خافقـــــة وجيب
فلما أكمـــــل الأمجـــــاد تاقت ... إلى الرحمـــــن نفس مـــــا تخيب
حباهـــــا الله في جنـــــات خلد ... بما تـــــرضى به وبـــــه تطيب

القصيدة الرابعة : تركتنا صرعى الأسى

بقلم : المختار ولد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه محاولة لرثاء فقيد العلم والدعوة ، شيخنا الشيخ سليم ، تغمده الله بواسع رحمته ، ومما أخرها – بعد ضعف الهمة ، وقلة الكفاءة – شدة التأثر بهذا المصاب ، وعدم القدرة على التحمل .

الخطب ما الخطـــب الذي أبكانا ... بل هد من دين الهـــدى أركانا
قالوا سليمُ قد قضى قلتُ ارتقى ... نحو الجنان مســـارعا جذلانا
رفقا فما صبري عـــلى ألم الجوى ... أم مـــن يكلَّف بعده ســـلوانا
غادرتنا فتركتنا صرعى الأســـى ... كلمى حيارى ذُهَّـــلا عميانا
قد كنت قدوتنا المـــربي رافعا ... رايـــات خير للهـــدى عُنوانا
ولربـــما قطَّعت ليلـــك تاليا ... متدبرا تشـــدوا بـــه ألحانا
ولربما في الحر صمـــتَ تطوعا ... فتظلُّ فيـــه ظامئا عطشـــانا
ولربما خضَّبـــت وجهك باكيا ... ولربـــما واريتـــه كِتمانـــا
ولربـــما هُدِيَ العصـــاةُ بنظرة ... أو بابتســـامة مشـــفق أحيانا
ولربـــما أطربتنـــا بطرائف ... ونـــوادر منثـــورةٍ ألوانـــا
ولقد شببت على الهدى فاهنأ بظل ... الله إذ يضحـــى الفتـــى عُريانا
يـــا رب فارفع قـــدره في جنة ... وأنله يا ربَّ الـــورى رضوانا
واخلف لنا مـــن بعده خيرا وكن ... خيرا لـــه إذ لم تـــزل رحمانا
وامنن على الأبنـــاء والأهلين با ... لخيرات والبركات يـــا مولانا
أدم الصـــلاة مســـلِّما ومباركا ... لمحمد أســـمى الورى إنسانا
والآلِ والوُرَّاث والداعين والـــ ... إخـــوان من يقفونه إحســـانا

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، وبعد . .

فإن الله تعالى رفع شأن العلم ورفع به ، قال تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ »[2] ، وقال : « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ »[3] وقال : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[4] وقال معاذ رضي الله عنه : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة ، وبذله لأهله قربة »[5] ، والعلم من أفضل الأعمال ؛ قال سفيان الثوري : « ما من عمل أفضل من طلب الحديث إذا صحت النية »[6] .

---

(١) [المجادلة: ١١]

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٦ تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد ط مؤؤسة الرسالة وسنن الإمام الترمذي ٥/ ٤٥ الناشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر ترتيب محمد أحمد شاكر الطبعة الثانية ، واللفظ له، وسنن أبي داوود ٢/ ٣٤١ تحقيق محي الدين عبد الحميد ط دار الفكر بيروت وسنن ابن ماجه ١/ ٨١ الناشر دار الفكر .

(٣) الحديث السابق، واللفظ لأحمد برقم (٢٢٠٥٨).

(٤) صحيح مسلم رقم (٧٠٢٨) الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٥ الناشر دار ابن الجوزي ترتيب أبي الأشبال الزهيري الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، وهو في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ١/ ٢٣٩ ط مصر ١٣٥١هـ.

(٦) حلية الأولياء ٦/ ٣٦٦.

وأهل العلم أهل لإصابة الحق ، وهم عُدول ؛ لِحَدِيثِ : (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ)[1] ، قال العراقي في ألفيته :

وَلِابنِ عبدِ الـــــبَرِّ كُلُّ مَنْ عُنِي فَإِنَّـــــهُ عَدْلٌ بِقَـــــوْلِ الْمُصْطَفَى
بِحَــمْلِهِ العِـلْــمَ وَلَـمْ يُـوَهَّـنَ يَحْمِلُ هَذَا العِلْـــــمَ لَكِنْ خُولِفَا[2]

وقد أنزل الله كتابه على نبيه ، وبينه بسنته ، فكانا الهدى والنور : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا »[3] ، فتفاوت حملة العلم في حفظه ، والانتفاع والنفع به . والعلم أقصى ما ارتفعت اليه الهمم ، وارتقت به الامم ، فهو سبيل رشدها وفلاحها ، وسر صلاحها وأمضى سلاحها.

ولما كان العلم بهذه المثابة ، فقد أردت أن أكتب بحثا متواضعا في آداب وأخلاق طالب العلم ، ضمنته تجربة متميزة في المجال العلمي ، وهي المحضرة الشنقيطية التي أخرجت من العلماء المتميزين المؤثرين في اصقاع العالم ، وهي فصول من رسالتي للماجستير ، المعنونة بـ : ((المحضرة الموريتانية وأثرها على الثقافة الاسلامية)) ، من جامعة ام درمان الاسلامية بالسودان ، التى نالت درجة الامتياز ، أسأل الله أن ينفع بهذا البحث في الحياة وبعد الممات .

---

(١) البحر الزخار على مسند البزار برقم (١٣٤) مكتبة العلوم والحكمة المدينة المنورة ترتيب محفوظ عبد الرحمن زين الله الطبعة الأولى والسنن الكبرى للبيهقي ط دار الباز مكة المكرمة ومستدرك الحاكم ط دار الكتب العلمية بيروت ، وصححه أحمد والذهبي ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص٥٥.

(٢) ألفية العراقي المسماة التبصرة والتذكرة ص١١٧ تحقيق الدكتور عبد الله سفيان الحكمي تصحيح ومراجعة الشيخ محمد سالم ولد عدود والشيخ محمد الحسن الددو .

(٣) متفق عليه الجامع المسند الصحيح المختصر صحيح البخاري ج١ برقم (١٤٢) دار طوق النجاة تحقيق محمد زاهر بن ناصر ١٤٢٢هـ ومسلم ج٤ برقم (١٧٨٧).

وقد بدأت البحث بذكر أخلاق وآداب أساسية لطالب العلم ، ثم مهدت تمهيداً عن نشأة العلم ، ثم قسمت البحث إلى فصول ، تحدثت فيها عن نشأة المحضرة وخصائصها ، وأثرها العلمي والعملي ، وأثرها في إنضاج العلوم الشرعية واللغوية ، وخصائص المحضرة الذاتية من حيث إنها جامعة شعبية بدوية ، تعتمد الارتحال وطوعية الممارسة .

كما تحدثت عن أثر المحضرة في تطوير الثقافة العلمية ، من خلال النضج النحوي والفقهي والأدبي ، والأثر في انتقاء المقررات ، أما العملية من حيث مقاومتها للإستعمار ، ودورها في بناء شخصيات اجتماعية مؤسسية ، وأثر تضحية العالم وظهور الإيثار في البيئة المحضرية ، وتحدثت عن خصائص المنهج المحضري ، وما تشمله من التدرج واعتماد الحفظ ، وعدم الجمع بين المتون ، وشمول الثقافة ، ثم تناولت مقارنة المحضرة بالمدرسة الحديثة ، من حيث فضائل المنهج المحضري ونواقصه التربوية ، مع مقارنة بين المنهجين .

آداب طالب العلم

١ - الأدب الأول : الاخلاص :

إن أساس آداب طالب العلم وركنها الركين ، هو تصفية النية وإخلاصها لله تعالى ، فالإخلاص هو سر القبول وسبب التوفيق ، وبه تتفاوت الدرجات .

وقد كان أهل الحديث يبدءون بحديث : « إنما الأعمال بالنيات » ؛ تنبيهاً على النيه ، مثل صنيع الإمام البخاري رحمه الله .

و يسألون عن نية طالب العلم ، قال العراقي رحمه الله وهب[١] :

لم يخلص النية طالب فعم ولا تحدث عجلاً أو إن تقم

ويرجون ببركة العلم أن يأتي الإخلاص : قال السيوطي رحمه الله :

ومن أتى حـــدث ولو لم تنصلح نيتـــه فإنها ســـوف تصح

فقد روينـــا عن كبـــار جله أبى علينـــا العلـــم إلا لله[٢]

والعلم لعظمة منزلته لايزكوا إلا إذا أريد به وجه الله : (وإنما فضل العلم أنه كان يبتغى به وجه الله)[٣].

قال مالك : « ماكان لله بقي »[٤] ، ولأنه طريق الجنة و : « من سلك طريقاً

---

(١) (وهب لم يخلص النية) الفية الحافظ العراقي جـ١ صـ١٦٤.

(٢) ألفية السيوطي جـ١ صـ٨٩.

(٣) حلية الأولياء جـ٦ صـ٦٣٢.

(٤) التعليق الممجد على موطأ محمد جـ١ صـ٤١.

يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً على الجنة[1]».

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الرياء في طلبه ، فقال : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لايتعلمه الا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة[2]».

وقال محمد العاقب بن مايابا ، في نظمه لنوازل سيدي عبدالله الحاج ابراهيم الشنقيطي :

من طلب العلم احتسابً وابتغا رضى العليم فـــاز بالذي ابتغى
ومن بـــه نهج المباهاة ســـلك وظن نفســـه عـــلى خير هلك
وقاصـــد الدنا بـــه اذا درى خسة قصده الخســـيس خاطرا
وذم مـــن نوى الدنـــا بالقيس عـــلى مهاجـــر لأم قيس[3]

وللإمام القرافي كلام جميل ، معناه : أن العالم يشع نوره بقدر أخذه من المصدر ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم كما أن القمر يشع نوره بقدر أخذه من المصدر ، الذي هو الشمس ، « ولما كان القمر يستفيض ضوؤه من الشمس وكلما كثر توجهه إليها كثر ضوؤه حتى يصير بدرا فكذلك العالم كلما كثر توجهه للنبي صلى الله عليه وسلم وإقباله عليه توفر كماله »[4] .

فنور طالب العلم يكون بقدر إرثه العلمي والعملي ، وبذلك يكون أثره على نفسه وعلى غيره .

---

(١) فتح الباري جـ ١ صـ١٧٤ .
(٢) أخرجه القاضي في الالماع واسبال المطر للصنعاني جـ١ صـ٣٩٠ .
(٣) فتاوى سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم نظم محمد العاقب بن مايابا - تحقيق محمد الأمين بن بيبه صـ٥٤٩ .
(٤) الذخيرة للإمام القرافي المجلد الاول صـ ٤٤ .

ولأن تعليم العلم صدقة وقربه ، فيجب فيه الإخلاص ، قال معاذ رضي الله عنه : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشيه ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لايعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين[1] ».

٢- الأدب الثاني : الصبر :

ومن آداب طالب العلم الاساسية ؛ الصبر ، وهو أدب طالب أي شئ ، فالصبر ضياء يستعان به على مشاق الدنيا والآخرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء »[2] والضياء فيه إحراق كالشمس ، ولكن لاينضج شئ إلا على ناره ، وهو نعم العون في الطريق: « واستعينوا بالصبر والصلاة [3] » ، وطالب العلم يحتاج إلى الصبر على المكابدة ، والسهر والجوع وجفاء المعلم .

تصبر على مر الجفـــا من معلم فإن رســـوب العلم في نفراته
ومن لم يذق ذل التعلم ســـاعة فكبر عليـــه اربعـــاً لوفاته

وقال آخر :

أخي لن تنال العلم إلا بســـتة ســـأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحـــرص واجتهاد وبلغة وصحبة أســـتاذ وطول زمان[4]

---

(١) جامع بيان العلم صـ٢٣٩ .
(٢) صحيح مسلم جـ١ صـ٢٠٣ رقم٢٢٣١.
(٣) سورة البقرة آية٤٥.
(٤) وفيات الأعيان جـ٧ صـ٣٥٦.

وقال اليوسي :

والعلم بدءاً ليس أرياً سيغاً لكن جناة الحنظل المتهبدِ

لم يصنه سهم ولم يبتزه باز ولم يصرع برمية مقلد[1]

٣- الأدب الثالث : الهمة :

ومن آداب طالب العلم الهمة العالية ، فالهمة طريق القمة قال المتنبي :

عجبت لمن له حد وقد وينبو نبوة القضب الكهام

ومن يجد الطريق الى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام[2]

فطالب العلم لابد له من همة عالية ، قال اليوسي :

لكي بأشراك الحلوم وهمة نفاذة الأغراض فليتصيد

وجواد فكر تمتطيه موأوب أبداً بأطراف المدارك مسئد

إن المبرزين في طلب العلم كانت لهم همم عالية ، نالوا بها مبتغاهم ، فقد مكث الامام النووي سنتين لم ينم إلا جالساً ، وكان يأخذ في اليوم إثنا عشر درساً[3] ، وقد ألف السرخسي كتابه في الفقه الحنفي ، وهو مسجون في طي البئر[4].

والعلم هو ألذ اللذات المعنوية ، ومن تعلقت به همته هان عليه كل شئ، نقرأ في سير السلف ، من أخذ عن ألف شيخ كالبخاري[5] ، ومن أدرك ألفي

---

(١) ديوان اليوسي .

(٢) ديوان المتنبي .

(٣) تربية ملكة الاجتهاد من خلال بداية المجتهد لابن رشد صـ ٣٠٩ لمحمد بولوز .

(٤) السير الكبير ١/ ٣٨١ .

(٥) صفحات من صبر العلماء في طلب العلم صـ ١٢١ .

شيخ ، ونجد رحلة العلماء شرقاً وغرباً ؛ طلباً لمن يأخذ عنه .

فصاحب الهمة همه همته ، لا يقف الا إذا أعانه الله على تحصيلها ، وينضاف إلى همة الطالب همة أهله ، وبيئته وتشجيعهم المادي والمعنوي ، ولطالب العلم آداب مرعية ، من أهمها إضافة إلى ماسبق ، ما ذكره حماد المجلسي رحمه الله في قوله:

له تغـــــرب وتواضـــــع واترع وهن وجع واعصي هواك واتبع[1]

٤- الأدب الرابع : الغربة :

فطالب العلم لاينال علمه حتى يغترب في طلبه ، وقد رحل جابر بن عبدالله[2] إلى عبدالله بن أنيس ، مسيرة شهر في حديث واحد ، وقد ذهب الإمام أحمد رحمه الله راجلا من بغداد إلى مكة ، واستأجر نفسه من مكة إلى اليمن من بعض الجمالين ، حتى وصل إلى عبدالرزاق الصنعاني وتغرّب حتى افتقر وسرقت ثيابه ، فاغلق عليه بيته ، وكان كثير من السلف والخلف يغترب في طلب العلم؛ لان الغريب متفرغ لاشغل له إلا العلم .

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتســـــاب معيشة وعلـــــم وآداب وصحبة ماجد[3]

وقال آخر:

إذا كنت تبتغي الصعب أن يلد السهلا فدع خلفك الأوطان والصحب والأهلا

وقد كره بعض أهل العلم الإجازة ؛ لأنها تبطل الرحلة في طلب العلم ،

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط صـ ٣٥٥.

(٢) البخاري جـ١ كتاب العلم .

(٣) فيض القدير للمناوي جـ٤ صـ٨٢.

وكان بعضهم لايفتح الرسائل الواردة من أهله ؛ خوفاً من التعطيل ، قال بن العربي المالكي : « كان ابو الفضل المراغي يقرأ بدار السلام ببغداد ، فكانت الكتب تأتي إليه من بلده ، فيضعها في صندوق ولايقرأ منها واحداً ؛ مخافة أن يطلع فيها على ما يزعجه أو يقطع به عن طلبه ، فلما كان بعد خمسة أعوام ، وقضى غرضاً من الطلب وعزم على الرحيل شد رحله ، وأبرز كتبه وأخرد تلك الرسائل وقرأها ، مالو أن واحدة منها قرأها في وقت وصولها ما تمكن بعدها من تحصيل حرف من العلم ، فحمد الله تعالى ورحل على دابته قماشه »[١] .

٥- الأدب الخامس : التواضع :

ومن السمات المميزة لطالب العلم ، تواضعه لله ولعباد الله ؛ استجابة للوحي الرباني ، وتمثلا للخلق النبوي ، قال تعالى﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله رفعه »[٣] ، وقال : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لايفخر أحد على أحد ، ولايبغي أحد على أحد »[٤] .

فطالب العلم أولى الناس بالتواضع ، قال مجاهد : « لايتعلم العلم مستحي ولا مستكبر » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين »[٥] ، وكان الصحابة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، كأنما على رءوسهم الطير[٦] ، وقال مالك رحمه الله : « وإن العلم

---

(١) احكام القرآن لابن العربي صـ ٦٤٧ .
(٢) الحجر آية ٨٨.
(٣) مصنف ابن ابي سيبه جـ٧ صـ١٢٠.
(٤) سنن أبي داوود جـ٤ صـ٢٧٤.
(٥) البخاري في كتاب الايمان .
(٦) شعب الايمان جـ٣ صـ٢٤.

يؤتى ولا يأتي »[1] ، وكان عبدالله بن عباس يأتي بيوت الصحابة وينتظر أمامها وقتاً طويلا ، فيقولون : هلا أرسلت إلينا فنأتيك ، فيقول : « العلم أحق أن يؤتى»[2] ، ومن تواضع طالب العلم ألا يتقدم على شيخه ، ولايظهر العلم أمامه، ولاينازعه، وأن يعتقد فضله ، وأنه أسبق منه وأعلم ، ومن علامات التواضع نسبة القول ، أن ينسب القول إلى قائله ، والفضل إلى أهله « إن من بركة العلم أن ينسب القول الى قائله »[3] ، ومن علاماته « قول : لا أدري ، فيما لايعلم » ، وقد قال بن هرمز: ينبغي للعالم أن يعود جلساءه لاأدري .

إذا ماقتلت الشـــــئ علماً فقل به ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله
فمن كان يهوى أن يرى متصدراً ويكره لا أدري أصيبت مقاتله[4]

وكلما علا كعب الانسان في العلم رأى تقصيره وجهله ، وعلم مقام أهل العلم ومابذلوا في طريقه ، وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام مايوحي بعظيم التواضع ، حيث قال : « هل أتبعك على أن تعلمني »[5] على سبيل العرض[6] ، « على أن تعلمن مما علمت » فجعل حظه الأعلى أن يتعلم بعض علم الخضر عليه السلام ، واستجمع أدب العلم الجم فقال : « ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا » وهذه والصبر وطاعة المعلم هما ركنا المسيرة العلمية الموفقة .

---

(١) الموطأ جـ١ صـ٤٤.
(٢) المستدرك جـ ١ الحديث ٣٧٠ .
(٣) جامع بيان العلم جـ٢ صـ٩٢٢.
(٤) أضواء البيان جـ٩ صـ٥٠٤.
(٥) سورة الكهف آية ٦٦.
(٦) صفحات من صبر العلماء في طلب العلم للشيخ عبدالفتاح ابو غده رحمه الله بتصرف صـ٣٨ .

٦- الأدب السادس : الورع :

ومعناه اتقاء المحرمات والمكروهات والمشتبهات ، فطالب العلم مالم يتنور بنور الإيمان ، ويجتنب المكروهات والمحرمات والشبهات ، ويتدرب على العمل الصالح ، لايكون له أثر ظاهر غالباً ؛ لأنَّ العلم صنو العبادة .

قال الشيخ محمد عالي رحمه الله :

العلـــــم من دون العبـــــادة هبا لايســـــتقر فحـــــرٍ أن يذهبا[١]

وقال الشافعي رحمه الله[٢] :

شـــــكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشـــــدني إلى تـــــرك المعاصي

وقـــــال اعلم بـــــأن العلم نور ونـــــور الله لايؤتـــــى لعاصي

قال بن العربي المالكي رحمه الله : ولاشك أن النهي عنه - أي المنكر - ممن يأتيه أقبح ممن لايأتيه عند فاعله ، فيبعد قبوله منه[٣] .

٧- الأدب السابع : الجوع :

إن من صفات طالب العلم ، البعد عن الشبع والترف ؛ لأن البطنة تذهب الفطنة ، كما هو معروف ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة مؤذية للجسم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فإنه ابعد عن الأشر وأصح للبدن ، واقوي على العبادة »[٤] ، وقال عمرو بن قيس : « إياكم والبطنة ، فإنها تقسي القلب »[٥] .

---

(١) أدب الطلب الشيخ عبدالله سفيان الحكمي صـ ٧٤ .

(٢) الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ١/ ٤٨٧ .

(٣) احكام القرآن لابن العربي المالكي المجلد الاول صـ ٢٦٦ .

(٤) ابن مفلح الآداب الشرعية من / ١٨٣ .

(٥) (جامع العلوم والحكم ج ٢ / ١٤٧١).

وقال ابن الجوزي : « فأما التوسع في المطاعم ، فإنه يسبب النوم والشبع ، يعمي القلب ويهزل البدن ويضعفه »[1] .

وذكر بن الجوزي أن بعض الفقهاء قال : « بقيت أشتهي الهريسة لا أقدر عليها ؛ لأن وقت بيعها وقت الدرس »[2] .

قال ابن القيم رحمه الله : « النجائب في الأول وحاملات الزاد في الطريق »[3] وعندما ينشغل الإنسان بشهواته يثقل عن الطاعة ، وتمتلئ حواسه فلا يكون قابلا للأعمال ، وتصعب عليه الطاعة ، ويصعب عليه الحفظ ؛ لأن من أسلحة النفس التي تغلب بها تتابع النعم ، ولأن الحفظ والتفكير يحتاجان الى أجهزة مهيئة لم تمتلئ بما يعوقها ؛ لأن الانسان كلما تتابعت عليه النعم ، وانغمس في الشهوات أخلد الى الارض واتبع هواه .

٨- الأدب الثامن : هوان النفس في طلب العلم :

وذلك أن تهون عليه نفسه في سبيل طلب العلم ، فموسى عليه السلام ركب البحر في طلب العلم ، وكان للشافعي رحمه الله حمار يركبه ، يدور بين حلقات العلم ، فضاع منه فتعب في طلبه ثم باعه ، وكان بعضهم يفتقر في طلبه الفقر المدقع ، مثل ماوقع لمالك والشافعي وغيرهم ، وكان بعض الطلبة في بعض البلاد لايشرب الا بعد شرب المواشي ، وكان بعضهم يمكث عشر سنين لايرى أهله، وكان كثير منهم يفرغ نفسه لخدمة مشائخه والسعي في حاجاتهم ، ويستهين كل صعب في سبيل العلم ، فكان بعضهم يحطب ويحلب المواشي ويرعى ، ويأتي بالصمغ ويزرع الأرض ويعمرها ، كما في بلادنا قديماً .

---

(١) صيد الخاطر صـ ٤٥١ .

(٢) صيد الخاطر ٢٧٢ .

(٣) الفوائد لابن القيم صـ ٦٧ .

قال الشيخ محمد محمود بن احمد يوره :

٩-الأدب التاسع : عصيان الهوى :

إن طالب العلم إذا اتبع هواه لابد أن يضل الطريق ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[١] ، فلابد لكل من أراد النجاح من عصيان الهوى؛ لأنه مخالف لداعية الشرع ، لأن النفس ميالة إلى الخلود في الراحة والكسل ، وهي قابلة للترويض على العلم وعلى العبادة ، فالذي يشبع هواه يرديه ويهلكه : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٢] ، فلابد لطالب العلم من التحرر من قيود الهوى حتى ينال المراتب العالية .

١٠- الأدب العاشر : الاتباع :

وهو التقوّي بامتثال الأمر واجتناب النهي ، فالعلم حجة للإنسان إذا عمل به ، وحجة عليه إذا لم يعمل به ، والعالم الذي لايعمل بعلمه على خطر عظيم ، وفي حديث من أول من تسعر بهم النار ما يخيف ، قال بن مسعود : « ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبصيامه إذا الناس مفطرون »[٣] .

وقد وصف الله أهل العلم بالخشية : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[٤].

وقال الشيخ محمد عالي :

وأغلب طلاب المـــــدارس همه بيان حـــــرام أو بيـــــان حلال

---

(١) سورة ص آية ٢٦ .

(٢) سورة النازعات آية ٣٩ - ٤٠ .

(٣) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري المالكي جـ٥ صـ٤٢٨ .

(٤) سورة فاطر آية ٢٨ .

يقيمون فرض الخمس عند ندائها نداء للأعمى أو نـــــداء بلال[1]

بعد أن ذكرنا طرفاً من آداب طالب العلم ، سنتحدث عن تجربة ناجحة في المجال التعليمي ، وهي المحضرة الموريتانية ونشأتها وتطورها وخصائصها الذاتية والمنهجية ، وأثرها في تطوير الثقافة العلمية والعملية .

تمهيد: في نشأة التعليم :

لقد كان أول ما نزل من القرآن (اقرأ) التي فيها الحث على العلم .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ، في فترة سرية الدعوة يتعلمون القرآن والإسلام سراً ، ثم إن الرسل الذين أرسلوا إلى المدينة قاموا بمهمة التعليم في الدور ، ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بأداء مهمته : « وإنما بعثت معلما »[2].

وقد نهل الصحابة من معينه ﷺ كل بحسبه فمقل و مستكثر ، قال عمر رضي الله عنه : « ألهاني الصفق بالأسواق»[3] ، وكان أبو هريرة يلزم النبي ﷺ بشبع بطنه ، ويحضر ولا يحضرون ، ويحفظ مالا يحفظون[4] .

وقد اعتمد التعليم من بدايته على التلقي ، فقد تلقى النبي ﷺ القرآن « وكان يعالج من التنزيل شدة »[5] ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[6].

---

(١) الشيخ محمد عالي بن عبدالودود رحمه الله.

(٢) ابن ماجه ١/ ٨٣ والدارمي ١/ ١١١.

(٣) متفق عليه البخاري ٥/ ٢٢٦ ومسلم ٦/ ١٧٩.

(٤) متفق عليه البخاري ١/ ١٢٢ ومسلم ٧/ ١٦٦ .

(٥) متفق عليه البخاري ١/ ٦ ومسلم ٢/ ٣٥ .

(٦) سورة القيامة [١٨].

وكان الصحابة يتلقون من النبي ﷺ ، وتلقى التابعون عنهم ، واعتمد المحدثون أشد الموازين ضبطا ، وفرقوا بين ألفاظ حدثنا وأخبرنا واخبرني إجازة .

ويمكن أن نعتبر أول دار للتعليم هي دار تعليم الأسرى للصبيان ، وكتَاب عبد الله بن سعيد بن العاص ، ودار مخرمة بن نوفل ، التي نزل بها ابن أم مكتوم لما قدم مع مصعب رضي الله عنهما[١] .

وأول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرآن الناس القرآن[٢] .

وقد كانت حلقات الصحابة رضي الله عنهم عامرة ، ومن تلك الحلقات حلقة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، فقد كانت حلقته بالبصرة ، وكان الناس يجلسون فيها حلقاً.

« وكان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا ، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[٣] قال هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ »[٤].

وكانت لأبي الدرداء رضي الله عنه حلقة في دمشق ، وكانوا يحدقون به يسمعون ألفاظه ، وكان ابن عامر مقدما عليهم[٥] ، قال الذهبي : إن أبي الدرداء هو الذي سن الحلق للقراءة[٦] .

---

(١) حياة الكتاب وأدبيات المحضرة ج١ [عبد الهادي حميتو] ص: ٣٦ .
(٢) الطبقات لابن سعد ج٤ ص: ٢٠٦ .
(٣) سورة العلق [١].
(٤) حياة الكتاب وأدبيات المحضرة ج١ ص: ٣٥.
(٥) سير أعلام النبلاء ج٢ ص: ٣٤٦.
(٦) معرفة القراء الكبار ج١ ص: ٣٨.

وعن مسلم ابن مشكم : قال لي أبو الدرداء : اعدد من يقرأ عندي القرآن ، فعددتهم ألفا وستمائة ونيفا ، ولكل عشرة منهم مقرئ ، وكان أبو الدرداء يكون عليهم قائما ، وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء رضي الله عنه[1] ، ومن الحلقات حلقة أبي عبد الرحمن السلمي ، وكان يقرئ الناس في المسجد الأعظم بالكوفة أربعين سنة .

وعندما جاء عقبة ﷺ للقيروان ، عين جماعة يقرئون الناس القرآن وشرائع الإسلام ، وعين عليهم شاكرا الأزدي .

وازدهر التعليم في عهد موسى بن نصير رحمه الله ، وكثرت الكتاتيب حتى عمت المغرب والأندلس ، وكان منها كتاب أسد بن الفرات ، وغازي بن قيس الذي أدخل قراءة نافع وموطأ مالك إلى الأندلس[2] .

وازدهرت المحاضر بعد ذلك في عهد المرابطين ، ومن أول المحاضر بالمغرب محضرة وجاج بن زلوا ، وهو شيخ بن ياسين[3] ، وكان من أهل السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان ، وأخذ من أبي عمران الفاسي ، ثم عاد إلى السوس وبنى بها دارا سماها دار المرابطين ، وكان ابن ياسين من طلابه ، وكان من أهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة ، مشاركاً في العلوم ، فخرج مع يحيى بن إبراهيم حتى وصل الصحراء ، وكانت محضرته أول محضرة في بلادنا ، وكان لتشجيع الأمراء دور مهم في قيام دور العلم ، بداية من عهد عقبة ﷺ إلى نهاية عهد المرابطين ، إلى ما قبل الاستعمار ، يقول المراكشي : متحدثاً عن يوسف بن تاشفين : « فانقطع إلى أمير المؤمنين من الجزيرة من أهل كل علم

(١) سير أعلام النبلاء ج٢ ص: ٣٣٥.
(٢) حياة الكتاب وأدبيات المحضرة ج١ ص: ٥٦\٥٧.
(٣) المرجع السابق.

فُحُولُه، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار»[1] ، ويقول عن ابنه : « واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس »[2] .

(١) المعجب لعبد الواحد ص: ٢٤٣.

(٢) الكتاب وأدبيات المحضرة ص ١٥٠-١٥١.

الفصل الأول

المحضرة : تعريفها ونشأتها وتطورها وخصائصها

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف المحضرة .

المبحث الثاني : نشأتها وتطورها .

المبحث الثالث : خصائصها .

المبحث الاول : تعريف المحضرة .

إن الحديث عن الحياة العلمية والثقافية لبلاد شنقيط ، يتطلب حتما الحديث عن حاضنة العلم في تلك البلاد على مدى قرون ، ألا وهي مدرسة الشناقطة التي يطلقون عليها (المحضرة) ، والتي تعتبر **ظاهرة فريدة** ، حيث كانت حاضنة العلم والثقافة في بلاد شنقيط ، رغم البداوة التي كانت تطبع حياة الناس عموما، وهي حالة شاذة انفرد بها القطر الشنقيطي عن غيره من الأقطار الإسلامية ، التي كان العلم فيها ملازما للحواضر ، نظرا لأن حياة البدو يلازمها دائما الجهل وقلة العلم والثقافة ، ولكن الشناقطة استطاعوا أن يصنعوا من باديتهم موطنا للعلم والثقافة ، ويجعلوا منها مدارس متنقلة تُتلقى فيها مختلف العلوم والفنون ، لذلك قال قائلهم :

وَنَحْنُ رَكْبٌ مِنَ الأَشْرَافِ مُنْتَظِمٌ أَجَلُّ ذَا الْعَصْرِ قَـــدْراً دُونَ أَدْنَانَا
قَد اتَّخَذْنَا ظُهُورَ العِيسِ مَدْرَسَـــةً بِهَا نُبَـــيِّنُ دِينَ اللـــهِ تِبْيِانَا[1]

تعريف المحضرة ، هي : مؤسسة تعليمية إسلامية نشأت في بلاد شنقيط؛ لتكون أداةً لنقل العلوم والمعارفِ وإرساءِ أُسسِ الدينِ الإسلاميِّ وتعهدِهِ بالرعايةِ في بلادٍ لم تعرِفْ من الحواضِرِ إلاَّ ما نَدَرَ ، وإنما كان جُل أهلها من البدو الرُّحَّل ، الذين ينتجعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ .

---

(١) قائل هذه الأبيات هو العلامة المختار بن بونا الجكني الشنقيطي المتوفي سنة : (١٢٢٠هـ) وهو أحد الأعلام الذي نشر النحو بعد دفنه وسيبويه شنقيط الأول ولا يوجد عالم بعده إلا له عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته . الوسيط ص ٢٧٧ .

واسم المحضرة مشتق إما من الحضور أو من الاحتظار ، فسميت محضرة بالضاد ، لأن الطلاب ينسلون من كل حدب وصوب إلى شيوخ العلم فيحضرون دروسهم ومجالسهم ، أو محاضراتهم ، فهي علي هذا ظرف مكان أي المكان الذي يحضر فيه طلاب العلم للتعلم والتدارس ، قال بن مالك :

مِنْ ذِي الثَلَاثَةِ لاَ يَفْعِلْ لَهُ ائْتِ بِمَفْـ ـعَلٍ لِمَصْدَرٍ أَوْ مَا فِيهِ قَدْ عُمِلاَ[1]

وقد قال لبيد:

فالواديـــــان وكل مغنى منهم وعلى المياه محـــــاضر وخيام[2]

وجاء في لسان العرب : (حاضروا المياه وحضارها الكائنون عليها)[3] .

وأما الاحتظار ففي لسان العرب ما نصه : (الحظيرة تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد)[4]. فأهل البادية كثيرا ما يحتظرون ، أي يحيطون منازلهم ومرابض أغنامهم ومراح أبقارهم ومعاطن إبلهم ، بأسيجة من جذوع الشجر وأغصانه وأشواكه ، وكذلك الطلاب يحتظرون أماكن دراستهم بأسيجة من جذوع الشجر وأغصانه[5].

والخلاف قائم بين من يؤيد اشتقاق اسم المحضرة من الحضور ، وبين من يميل إلى اشتقاقها من الاحتظار ، ويرى بعض الباحثين أن أصل الكلمة (محضرة) بالضاد أبدلت الضاد ظاء في اللهجة الحسانية ، وهو أمر مطرد في غير

---

(١) انظر مناهل الرجال ومراضع الأطفال علي لامية الأفعال ، لمحمد أمين الهرري ، ط مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ١٤١٧هـ .

(٢) محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ٣/ ١٥٣ المطبعة الوهبية ١٢٧٧هـ .

(٣) ابن الفضل جمال الدين بن منظور ، لسان العرب ، ط دار بيروت ١٤١٠هـ مادة (حضر).

(٤) ابن منظور لسان العرب مادة (حظر) ٤/ ٢٠٣ ، مرجع سابق .

(٥) المنارة والرباط للخليل النحوي ص : ٦١ .

هذه الكلمة[1].

وقد وردت كلمة محضرة بالضاد في المراجع القديمة ، حيث جاء في رحلة ابن جبير – المتوفى سنة٦١٤هـ – عند استعراضه لمعالم مدينة القاهرة ومرافقها، التي شيدها صلاح الدين الأيوبي ما نصه : « ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين ، أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله العزيز ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام »[2] .

وجاء في كتاب المعيار عن فتاوي إفريقيا والأندلس والمغرب ، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي – المتوفى سنة : ٩٤١هـ – وذلك عندما سئل عن مسجد أضيف إلى محضرة ، هل يجوز أخذ أجر على الأولاد ؟ حيث أجاب بما نصه : «يجوز للمؤذن أن يبقى في محضرة يقرئ كتاب الله ، وإن لم يبق من الأولاد إلا واحد أو اثنان ، ويأخذ ما عينه له السلطان»[3] . هذا من الناحية اللغوية .

وأما **المحضرة في الاصطلاح** ، فقد عرفتها وزارة الشؤون الإسلامية الموريتانية : « بأنها المؤسسة التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية ، منذ تسعة قرون ، وما تزال تتابع رسالتها »[4] .

وهذا التعريف أشبه بالوصف منه بالتعريف ، وأفضل تعريف للمحضرة وأشمله ما عرفها به الخليل النحوي ، حيث يقول : « المحضرة جامعة شعبية ،

---

(١) انظر : دور المحاضر في موريتانيا في مكافحة الاستعمار ، لمحمد مصطفى الندى ص : ١٧ والسلفية وأعلامها في موريتانيا ص : ٨٨ مرجع سابق .

(٢) انظر رحلة ابن جبير ص : ٦١ ، ط دار الكتاب .

(٣) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل الأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي .

(٤) وزارة الشؤون الإسلامية ، كتاب التهذيب ص : ١ ، مكتوب على الآلة الكاتبة/ ١٩٨٧م.

بدوية ، متنقلة ، تلقينية ، فردية التعليم ، طوعية الممارسة »[1] .

وقريب من هذا التعريف قول جمال بن الحسن رحمه الله : « وكانت مدارس هؤلاء أو المحاضر كما يسمونها ، جامعات بدوية متنقلة في أكثر الأحيان ، يجتمع فيها شباب قبائل الزوايا حول العالم ، فيتلقون عنه المتون العلمية في مختلف فروع ثقافتهم »[2].

(١) بلاد شنقيط المنارة والرباط للخليل النحوي ص : ٥٣ مصدر سابق .

(٢) انظر : الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر لجمال ولد الحسن ص : ١١١ .

المبحث الثاني : نشأتها وتطورها .

يجمع الباحثون في بلاد شنقيط ، على أن رباط عبد الله بن ياسين ، هو النواة الأولى لهذه المؤسسات التعليمية الفريدة من نوعها ، وإن كانت لم تعرف بتسميتها (بالمحاضر) إلا في القرن السادس الهجري[1] .

وباختصار يمكن أن نحدد مكان وزمان أهم المحاضر القديمة في بلاد شنقيط على النحو التالي :

١ - رباط عبد الله بن ياسين ، الذي يعتبر المحضرة الأم الأولى ، والذي تأسس حوالي سنة : ٤٣١هـ على الراجح ، في جزيرة تيدرة على بعد ثلاثين كيلو مترا إلى الشمال من العاصمة الموريتانية نواكشوط[2] .

٢ - وتعتبر محضرة أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي - المتوفى سنة ٤٨٩هـ - هي المرحلة الثانية في نشأة المحاضر ، والتي تأسست بعد انقسام دولة المرابطين ، لما ولّاه أبو بكر بن عمر القضاء ، وتقع في (أزوكي) قرب مدينة أطار وبها مدفنه[3] .

---

(١) معهد البحوث ص : ٤٧١ والسلفية وأعلامها ص : ٨٩ مراجع سابقة .

(٢) انظر المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ، رسالة ماجستير في جامعة الملك سعود بالرياض كلية التربية سنة : ١٤٠٦هـ للباحث محمد الصوفي محمد الأمين .

(٣) حياة موريتانيا ، المختار بن حامدن ٢/ ٥ ، وشعراء موريتانيا لمحمد يوسف مقلد ص: ٣٣٥ ، مقدمة كتاب السياسة ، أو الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ص : ٢٢ط١ الشركة الجديدة دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٤٠١هـ .

٣ – أما المرحلة الثالثة فقد قادها علماء ، منهم إبراهيم الأموي جد قبيلة مجلس ، الذي يعتبر المعلم الثالث ، ومعه عبد الرحمن الرَّكَّازْ ، الذي تنتسب إليه قبيلة تركز وجد قبيلة (إدقزينب) ، الزينبيون[١] .

٤ – والمرحلة الرابعة في تأسيس المحاضر ، هي المدارس القروية في الحواضر الأول في القطر الشنقيطي وهي :

أ – **محضرة تيشيت** ، والتي أسسها الشريف عبد المؤمن بن صالح الإدريسي في (تشيت) عام ٥٣٦هـ ، وكان لها نشاط بارز في نشر العلم في البلاد[٢] .

ب – **محضرة ودان** ، أسسها رجال جمعتهم رحلة الحج ، وهم الحاج عثمان الأنصاري تلميذ القاضي عياض ، وزميله الشريف عبد المؤمن ، والحاج يعقوب القرشي ، والحاج علي الصنهاجي ، وتوجد قبيلة كبيرة في البلاد تسمى (إدو الحاج) أي أولاد الحاج ، ولها بطون متفرقة ، ويرجع نسبها إلى هؤلاء الرجال[٣] .

ج – **محضرة شنقيط** ، أسستها قبيلتا إدو علي ، والأقلال بعد بناء مدينة شنقيط الجديدة ، عام ٦٦٠هـ ، أما شنقيط القديمة فقد تأسست عام ١٦٠هـ .

وقد قامت بهذه المدينة سوق العلم ، وتفرعت عنها معظم المحاضر التي انتشرت في البوادي ، الأمر الذي أدى إلى شهرة مدينة شنقيط عن المدن العلمية الأخرى ، وجعلها العاصمة الثقافية للبلاد .

---

(١) حياة موريتانيا ، المختار بن حامدن ٢/ ٣١ ، ودور المحاضر في موريتانيا لمحمد المصطفي بن الندي ص ٢٢ ، أطروحة جامعية .

(٢) انظر حياة موريتانيا للمختار بن حامدن ٢/ ٦ ، ١٩٨ ط الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٠م ، وشعرا موريتانيا لمحمد يوسف مقلد ص : ٣٣٦ .

(٣) حياة موريتانيا ٢/ ١٩٨، والمنارة والرباط ص : ٧١ ، والمحاضر الموريتانية لمحمد الصوفي ص : ٣٥ مراجع سابقة .

وإن كانت المدن الأخرى مثل : (ودان ، وتشيت ، وولاته) لا تقل أهمية من الناحية التاريخية والعلمية عن مدينة شنقيط[1] .

د - **محضرة (تينكي)** بكاف معقودة ، والتي أسسها الجكنيون ، في أواسط القرن السادس الهجري ، وأقاموا بها قريبا من أربعة قرون في غاية ما يكون من العلم والمال والعدد ، ويُرْوى أنه كان بها ٣٠٠ فتاة تحفظ الموطأ والمدونة ، يقول المختار بن حامدن : (وقد روينا عن العلامة اباه بن محمد الأمين اللمتوني ، أن أكثر بقاع الدنيا إذ ذاك علما : مصر وتينكي)[2] .

هـ - **محضرة ولاته** ، أسسها يحيى الكامل جد قبيلة المحاجيب ، وقد ازدهرت بسببها الحياة العلمية في المنطقة ، وتختلف المراجع حول تاريخ الإنشاء ، فيرى الخليل النحوي أن ذلك كان في القرن السادس الهجري ، بينما يميل المختار بن حامدن إلى أن هذه المحضرة تأسست في أوائل القرن الثامن ، أما المدينة نفسها فقد تأسست في القرن الأول الهجري ، وزارها الرحالة بن بَطُّوطَة سنة : ٧٥٣هـ، وقال عنها : « رجالها محافظون على الصلوات ، وعلم الفقه وحفظ القرآن » .

وقد أصبحت مدينة ولاته مركزا من مراكز العلم ، حيث قامت فيها محاضر عدة في فترات متفاوتة ، أبرزها محضرة أهل سيد عثمان الداوودي ، ومن رجالها

---

(١) شعراء موريتانيا محمد يوسف مقلد ص : ٣٣٦ ، وحياة موريتانيا ٢/ ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، والمنارة والرباط ٧٣ ، ٧٢ .

(٢) حياة موريتانيا ، المختار بن حامدن ٢/ ١٨٧ .

المشهورين : الشيخ محمد يحيى الولاتي[1] ، والشيخ محمد يحيى بن سليمة[2] .

فهذه أهم المحاضر الأولى التي انطلقت منها الحركة العلمية المتميزة في بلاد شنقيط ، والتي كان لها الفضل بعد الله تعالى ، في نشر العلوم الإسلامية والعربية في غرب إفريقيا بوجه عام ، وقد تفرعت عن هذه المحاضر الأم سائر المحاضر في بقية أرياف وبوادي صحراء الملثمين ، حيث كانت هذه الحواضر هي مهد المحاضر في القرون الأولى ، منذ القرن الخامس إلى التاسع الهجري ، ولكن منذ القرن العاشر الهجري تسلمت البادية الراية من الحواضر ، فبدأت المحاضر تنتشر في البوادي بشكل منقطع النظير لم يسبق له مثيل في أية بادية[3] .

وهذه المحاضر متنوعة ، منها محاضر متخصصة ، ومحاضر عامة ، ومحاضر قرآنية[4] ، وقد حاول المختار بن حامدن[5] ذكر ما أمكنه منها في كتابه « حياة

(١) هو أبو عبد الله محمد يحي الولاتي الشريف، وحيد دهره حفظا وعلما وأدبا جامع الصفات الحميدة رحل وحج واجتمع في رحلته بكثير من العلماء له تأليف كثيرة منها شرح صحيح البخاري توفي سنة: ١٣٣٠هـ، انظر: الأعلام للزركلي ٨/ ١٣ ط ٣ بيروت ١٣٨٩.

(٢) هو محمد يحي بن سليمة الداودي اليونسي عالم جليل محدث من أبرز علماء شنقيط له مؤلفات تزيد على ١٦٠، كان يرى الاجتهاد وحدث خلاف بينه وبين محمد يحي الولاتي في ذلك توفي: ١٣٥٤ ، انظر حياة موريتانيا ٢/ ١٩٩ ، والشعر والشعراء ص : ٢٠ مراجع سابقة .

(٣) المنارة والرباط ص : ٧٨ ، مرجع سابق .

(٤) جاء في إحصاء ١٩٩٤ التالي المحاضر الجامعة ١٥١ والمتخصصة ٢٤٦ والقرآنية ١٣٣١ وبلغ عددها الإجمالي في إحصائية إدارة المحاضر ٢٠٠٩م ٦٤٨٩ . التعليم الموريتاني من المحضرة إلى المدرسة الحديثة أ محمد لكبيد ولد حمديت مفتش عام سابق للتهذيب الوطني ص ٢٨ -٢٩ .

(٥) المختار بن حامدن الديماني ولد سنة ١٣١٥هـ كان من كبار العلماء والأدباء والمؤرخين عرف بمنظوماته الرائقة أخذ عن يحظيه بن عبد الودود وأحمد بن محمد سالم المجلسي ويعتبر المختار من أكبر الؤرخين المعاصرين توفي سنة ١٤١٤هـ بالمدينة المنورة التاريخ=

موريتانيا »[1] .

وتقديرا لمكانة هذه المدن العريقة العلمية والتاريخية ، والتي احتضنت المحاضر الأم ، فقد أعلنت منظمة التربية والتعليم والثقافة (اليونسكو) ، حملة دولية عام : ١٩٨١م ، لإحياء هذه المدن ، فقال مدير المنظمة الدكتور أحمد مختار أنبو في نداء الحملة : « إن مدن ودان ، شنقيط ، ولاته ، تيشيت ، هي الشواهد الأخيرة على ازدهار منطقة ظلت لفترة طويلة بحكم موقعها في ملتقى طرق القوافل الصحراوية الكبرى ، تربط بين المغرب العربي ومنطقة الساحل ، كما أن وجودها في محور فكري . . تلتقي فيه الأندلس بأقصى إفريقيا ، جعلها تفتح أبوابها في آن واحد لتجارة السلع ، ولتبادل المعارف ، كما استطاعت أن تصبح بذاتها ، مراكز للإبداع والإلهام ، ومصدر إشعاع لحياة دينية غنية ، ولأنشطة علمية وفنية عديدة»[2] .

ذكرنا في تعريف المحضرة أنها : (جامعة شعبية ، بدوية ، متنقلة ، تلقينية ، فردية التعليم ، طوعية الممارسة) .

فهذا التعريف اشتمل على أهم سمات المحاضر ، وخصائصها التي تميزها عن غيرها من المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي .

=السياسي مختار ابن حامدون ص ٥/ ٧ .

(١) رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، لابن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة ص : ١٠ط دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ .

(٢) نداء المدير العام لليونسكو: نشرته جريدة الشعب الموريتانية بتاريخ ١٦/ ٢/ ١٩٨١م الصفحات : ٥-٦ .

المبحث الثالث : الخصائص العامة للمحضرة .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : خاصية الجامعة الشعبية .

المطلب الثاني : خاصية البداوة والارتحال .

المطلب الثالث : خاصية طوعية الممارسة .

المطلب الأول: خاصية الجامعة الشعبية .

فهي أولا جامعة : لأنها تقدم للطالب معارف موسوعية في مختلف فنون المعرفة مثل : ((القرآن وعلومه ، والعقيدة ، وعلم الكلام ، والفقه وأصوله وقواعده وفروعه ، والسير والتاريخ والأنساب ، والأخلاق وآداب السلوك ، واللغة والأدب ، ودواوين الشعر ، والنحو والصرف والبلاغة ، والعروض ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والفلك ، والطب إلخ . . .) .

ويتدرج الطالب في دراسة هذه العلوم ، من مستوى ابتدائيٍّ ، إلى متوسطٍ ، إلى أعلى مستويات التخصص .

ويتسم نظام المحضرة بالحرية والمرونة ، فهي ذات نظم ومقررات وأعراف تربوية خاصة ، اقتضتها طبيعتها وظروف البلاد ، فهي لا ترد طالبا لعدم وجود مقاعد شاغرة ، ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب ، فلا حد أعلى لعدد الطلاب الذين تستقبلهم ، ولا حد أدنى للعدد الذي تقوم عليه ، ولو لم يبق فيها إلا طالب

أو طالبان[1] .

والأصل أنه ليس هناك سجل جامع للطلبة يضبط أسماءهم ، ويحصر أعدادهم ، إلا أنه حدث بعض الضبط مؤخرا ، ولكن هناك مؤشرات أخرى يستنتج منها أعداد الطلبة ولو بشكل تقريبي[2] .

والمحضرة كما يصفها الكاتب الغربي (لكرتوا) : « جامعة شعبية ، تستقبل كل من يرد عليها ، من جميع المستويات الثقافية ، والفئات العمرية والجنسية الاجتماعية ، تستقبل المبتدئ كما تستقبل العالم ، فتجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها ، ويرتادها الطفل والشيخ والمرأة (بضوابط) والفقير والموسر ، تبذل لكل طالب ما يريد من ضروب المعرفة ، حسب مستواه الثقافي ، وهوايته ، وطاقة استيعابه ، وهي لا تسد أبوابها وإن عطلت الدراسة أياما معدودات ، بل تستمر في العطاء على مدار السنين»[3] .

---

(١) انظر تحقيق ديوان الشيخ محمد عبد الله بن أحمذي لمحمد عبد الله بن محمد محمود ص:١٢ .

(٢) كعدد الألواح ، وعدد الأبقار والمواشي ، ونوبات رعاية الماشية. . . ، وقد جاء محمد مولود بن أحمد فال إلى محضرة محمد عالي بن سعيد ، مع الألفية واحمرارها مفرقة في الألواح تدرس جميعها في يوم واحد ، وكان مختصر خليل يدرس كله موزعا في الألواح في محضرة (الكحلاء) خلال يوم واحد ، فإذا اعتبرنا أن كل طالب يدرس (قفا) يكون عدد الطلبة الذين يدرسون متن خليل فقط وحده (٣٣٣) هذا فضلا عن أن المحضرة تدرس بها متون أخرى كثيرة غير المختصر بالإضافة إلى أن أكثر الطلبة يكتب أقل من قف لليوم وبعضهم يدرس حسب نظام الزمرة (الدولة) وحصص الطلبة من المختصر قد تتداخل وتتطابق في بعض الأحيان : انظر المنارة والرباط ص (٥٥) .

(٣) تحقيق ديوان الشيخ محمد عبد الله بن أحمذي لمحمد عبد الله بن محمد محمود ص: (١٢).

المطلب الثاني: خاصية البداوة والارتحال .

إن المحضرة الموريتانية جامعة بدوية متنقلة : وهذه سمة من أبرز سماتها ، وإن كانت في الأصل انطلقت من المدن والحواضر ، إلا أنها ازدهرت وانتشرت وتبلورت شخصيتها في رحاب البادية لا في المدن ، وليس لمؤسسة هذا شأنها أن تكون قارة ثابتة ، بل هي متقلبة تقلب البدو في منتجعاتهم ومسارح إبلهم وأبقارهم ، وإلى هذه الخصيصة يشير الدكتور محي الدين صابر بقوله : « إن نظام المحضرة يكاد يكون دون نظير ، استنبط من واقع الحياة البدوية »[1] .

ويقول محمد المختار بن اباه : « من الصعب على من لم ير المحاضر أن يتصورها ، ذلك أن البداوة تقترن في الذهن بالغباوة والجهل ، فالثقافة جزء من الحضارة ، ومراكز العلم والتدريس تقترن غالبا بالمعاهد والجامعات المشيدة ، التي اتصلت شهرتها بشهرة المدن التي تحتضنها ، غير أن المحاضر فريدة من نوعها ، ففي بعض أحياء البدو الذين ينتجعون المراعي ، متنقلين من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء ، تصادف شيخا كسائر البداة ، متقشفا في ملبسه ومظهره ، لا يمتاز بشيء عن سكان الحي ، سوى مجموعة من الشبان تلتف حوله ، يقل عددها ويكثر حسب الأزمنة ، تقيم تحت الشجر ، وفي أعرشة من خشب ، وثمام وحشائش ، تقوضها وتعيد بناءها كلما ارتحل الشيخ »[2] .

---

(١) جريدة الشعب الموريتانية العدد (١٧٠٢) بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٩٨١م .

(٢) الشعر والشعراء في موريتانيا ، محمد المختار بن اباه ص : (٢٣) مرجع سابق .

ويقول (بيري) أحد مفتشي عهد الاستعمار : ((لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ البيضان (الشناقطة) في العلم بالعقيدة ، والتاريخ ، والأدب ، والفقه، وعلوم العربية »[1] .

لقد انطبع في أذهان الناس ، أن العلم ربيب الحضارة ، ولكن هؤلاء البدو استطاعوا أن يحققوا نهضة علمية وثقافية ، تحت الخيام وعلى ظهور العيس، وفي مجاهل الصحراء ، وقد افتخر المختار بن بونا بهذه المزية التي انفرد بها أهل بادية شنقيط من بني قومه – وحق له ذلك – فقال :

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قـــــدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرســـــة بها نبـــــين ديـــــن الله تبيانا[2]

وتشترك المحظرة مع مؤسسات التعليم الإسلامي الأهلية القديمة ، في الصبغة التلقينية ، فالطالب يتلقى من شيخه ، ويستقي منه المعلومة ، فنص الدرس يجب أن يصحح على الشيخ بعد كتابته ، إن لم يكن هو الذي أملاه أصلا ، وهو المعتمد عليه في شرح النص ، وفك رموزه وبيان مدلولاته ، أما الذي يأخذ من الكتب دون الرجوع إلى الشيخ ، فيتمثلوا فيه قول أبي حيان لابن مالك :

يظن الغمـــــر أن الكتب تهدى أخـــــا فهـــــم لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بـــــأن فيها غوامض حيرت عقـــــل الفهيم
إذا رمـــــت العلوم بغير شـــــيخ ضللت عن الصراط المســـــتقيم
وتلتبس الأمـــــور عليك حتى تصير أضل من (توما) الحكيم[3]

(١) المنارة والرباط ، الخليل النحوي ص (٣) . مرجع سابق .
(٢) المنارة والرباط ص : (٥٦) .
(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد الأمين ط مكتبة الخانجي بمصر ط٢، ١٩٥٨م ص : ٦٩ .

ومن القواعد الأساسية المسلم بها في المنهج المحضري : أن العلم من أفواه الرجال ، لا من بطون الكتب ، ولذلك فإن طلاب العلم والمجتمع عموما يولون الإجازات والأسانيد عناية خاصة ، ويحرص طلاب المحاضر على إجازات الشيخ لهم فيما يقرءون عليه .

وتعتمد المحضرة نظام التعليم الفردي ، في طرفي العملية التربوية : (الأستاذ والطالب) .

أ - **الأستاذ أو الشيخ** : وهو المحور الذي تدور عليه العملية التربوية ، وهو ركن أساسي من أركان المحضرة ، لا تكاد تقوم بدونه ، فلكل محضرة شيخ (المرابط) يتسم في الغالب بالموسوعية ، بحيث يكون قادرا على تدريس كل المتون ، والموارد المختلفة التي يريد الطلاب دراستها ، كل حسب رغبته وهوايته ، فأحادية الشيخ هي السمة العامة للنظام المحضري ، إلا أن المحضرة تمثل في واقع الأمر مركزا لتبادل المعارف ، ومنبر حوار وأخذ وعطاء ، فكثيرا ما يحضر علماء الحي حلقات الدراسة ، فيدلون بدلائهم ، يعقبون ويكملون ويستوضحون ، فلا يكلون الأمر إلى الشيخ وحده ، ولا هو يستبد به دونهم ، وللطلبة أنفسهم دور في نقل المعارف وتبادلها ، فكل يأخذ من الآخر ويفيده بما عنده ، ومن تقاليدهم في ذلك أن ينثروا جميعا ما في جعبتهم من المعارف المتصلة بالدرس المقروء أو بغيره، فيتلقى كل منهم عن زملائه فوائد كثيرة ، يقيد منها ويحفظ ، مما لا يتأتى اقتناؤه في الدرس[1] .

وربما استعان بعض مشايخ المحاضر ، بطلبته المتفوقين في تدريس صغار الطلبة ، ويتأكد ذلك عندما تكثر أعداد الطلبة ، بحيث يضيق وقت الشيخ عن

---

(١) المنارة والرباط الخليل النحوي ص : ٥٨ .

تدريسهم جميعا ، وهؤلاء أشبه شيء بالمعيدين في النظم التربوية الحديثة ، ومثل هذا النظام ضروري ؛ في المحاضر التي تؤوي أعدادا كبيرة من الطلبة ، وبانتداب هؤلاء كمدرسين مساعدين تنحل مشكلة غياب الشيخ لمرض أو غيره ، وقد وجد هذا النظام في بعض المحاضر الحديثة كمحضرة اباه ومحضرة العون وغيرها.

ب – **الطالب** : ويتسم نظام المحضرة من ناحية الطالب أيضا بالطابع الفردي، فالقاعدة العامة أن يكون لكل طالب درسه الخاص به ، يختاره لنفسه في ضوء رصيده العلمي السابق وهوايته ومؤهلاته ، وطبيعة المحضرة التي ينتمي إليها ، إلى غير ذلك من الاعتبارات ، ولا يلزم الشيخ الطالب بمتن أو درس معين يقرأه، لا كَمًّا ولا نَوْعًا ، فقد يرشده إلى الأولى والأنفع له ، حسب مستواه ومؤهلاته، ولكنه لا يفرض عليه شيئا ، بل الطالب في المحضرة رقيب على نفسه، يأتي متى شاء ، ويدرس متى شاء ، وقد أكد كثير من الباحثين أن هذه المرونة الفائقة في نظام المحضرة ، أجدى وأنفع من نظم المراقبة والمحاسبة في المدارس الحديثة، التي تجعل الطالب متهما منذ البداية ، حيث يربيه المدرس والمراقب ومجلس التأديب على الإحساس بأنه قاصر محجور عليه ، لا يستأهل الثقة ، فيتوهم أن المصلحة في الدراسة لغيره لا له ، لما يرى من ضوابط إجبارية تحكمها ، فينفر منها ويتقاعس عن التضحية في سبيلها . أما الطالب في المحضرة ، فإنه متجرد لطلب العلم منذ البداية ، ليس له هدف آخر ، فهو لا يرجو من دراسته شهادة أو وظيفة أو مكافأة، وإنما يتحمل الغربة ومشاق السفر وشظف العيش من أجل العلم ، ولذلك فهو يمارس على نفسه رقابة ذاتية صارمة ، تعضدها رقابة اجتماعية تلقائية ، ذلك أن المجتمع يربيه على الإحساس بأنه حر مسئول ، لا وصي عليه في حياته العلمية ، ويغرس في ذهنه أن جهده الدراسي ومنزلته العلمية رمز رجولته وعنوان رشده

وبرهان نضجه ، كما أن لروح المنافسة أثرا كبيرا في تأنيب الضمير ، إذا لم يكن لديه من الجد والاجتهاد مثل ما عند زملائه وأقرانه ، الذين يرى أن جلهم مقبل على العلم بنهم وصبر منقطع النظير ، خصوصا إذا كان في بيئة مجتمع الزوايا ، فإن لهذا الأمر أضعاف ما للرقابة من أثر في ضبط سلوك الطالب[1] ، وهذا يدلنا على ما للمحيط الاجتماعي من أثر بالغ في سلوك الطالب ، ومستوى تحصيله ، والرفع من همته وعزيمته .

ومع أن نظام الدراسة في المحضرة يغلب عليه الطابع الفردي ، إلا أنه يأخذ بمزايا التعليم الجماعي في حالتين :

الحالة الأولى : جماعية الحلقة الدراسية ، فالدروس تقدم حلقة مفتوحة يحضرها من شاء من الطلبة وغيرهم ، وكثيرا ما يتابع الطلبة في هذه الحلقة دروس زملائهم ، فتكون تكرارا لما درسوه في السابق ، وتمهيدا لما سيدرسونه مستقبلا .

وأما **الحالة الثانية** : فهي نظام التعليم الزُمَرِي ، أو نظام (الدولة) – كما يسميه طلاب المحضرة – ، وهو عبارة عن دراسة جماعية ، يشترك فيها مجموعة من الطلبة متقاربي المستويات يقع اختيارهم على متن واحد معين ، يدرسونه معا ويتعاونون على تكراره واستظهار معانيه[2] وبذلك تكون المحضرة قد جمعت بين مزايا نظام التعليم الفردي ، ومزايا التعليم الجماعي .

---

(١) المنارة والرباط الخليل النحوي ص: ٦٠ مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق ص: ٥٩.

المطلب الثالث: خاصية طوعية الممارسة .

يقوم نظام المحضرة على أساس من التطوع والمبادرة الحرة ، في الدراسة والتدريس معا .

فالشيخ يبذل جهده العلمي بدون مقابل ، فهو يبذل وقته وعلمه بكرم وسخاء عجيب ، يبذله للكبير والصغير ، والموسر والمعسر ، دون تمييز . .

قد تصل إليه بعض الهدايا ، ولكنه يأنف من أن يطلب عوضا على ما يقوم به، أما مدرس (الكتَّاب) الذي يحفظ الصغار ، فإنه يتلقى في الغالب هدايا رمزية في مناسبات معينة كيوم الأربعاء ، أو بمناسبة إتمام حفظ حزب جديد ، أو إتمام ربع القرآن أو نصفه ، أو إكماله كله وهذا الأمر عبارة عن عقد اجتماعي ، رسخته تقاليد المجتمع ، وله ما يؤيده من أحكام الشرع المطهر : (إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللـهِ)[1] .

وتختلف طوعية الشيخ في المحضرة عن طوعية الطالب ، فطوعية المدرس تكلفه عناء ومشقة ؛ لأنه ملزم بحكم اختياره ، بالوقوف عند رغبة الطالب يعلمه متى شاء ، إلا لضرورة نوم أو مرض ونحوهما ، أما طوعية الطالب فمبناها على أن لا إكراه في العلم ، فالمدرس لا يتدخل للدارس فيما يدرسه ، ولا يراقب غيابه، إلا أن يتفقده ليطمئن على صحته ونحو ذلك ، وقد كان من النتائج الإيجابية لهذه الروح الطوعية في المحضرة ، أن نشأت علاقة حميمة بين الشيخ وطلبته ، فهو يخاطبهم بتواضع ويعاملهم باحترام وإكبار ، ولا يكلفهم من العمل إلا ما

---

(١) صحيح البخاري رقم (٥٧٣٧).

ينتدبون له عن طواعية منهم ، وكان العلامة يحيى بن أحمد فال يقول : « تلامذتنا أساتذتنا » .

ومن عادة شيخ المحضرة أن يتعهد طلبته بالرعاية ، ويعتني بصاحب الحاجة، ويجعل الغريب حديث العهد محل عناية خاصة ، ويتواضع لهم فيمازحهم كما لو كانوا أقرانه ، ويتساجل معهم .

ومن السمات الفارقة بين المحضرة وغيرها من مؤسسات التعليم : أنه ليس لها مكان محدد ثابتة فيه ، ولا طريقة خاصة لإلقاء الدروس ، فالبساطة والمرونة سمات أساسية من سمات المحضرة ، فمقرها قد يكون خيمة ، أو عريشا من خشب ، أو تحت شجرة ، هذا في حال المقام ، أما في أثناء الارتحال فقد يكون مقرها ظهور الإبل ! أو المشي على الأقدام . . (! !) .

وأما طريقة إلقاء الدروس فلا يلزم الأستاذ ولا الطلبة فيها نظاما خاصا ثابتا ، فالبساطة هي صبغة الحياة الشنقيطية كلها ، فليس للشيخ كرسي يجلس عليه ساعة التدريس ، ولا طريقة معينة لإلقاء الدرس ، وليس على الطلبة إلا أن يكونوا حوله ، بالشكل الذي يمكنهم من متابعة الدرس ، ولا يخل بوقار العلم ، ويصور لنا أحمد بن الأمين ذلك بقوله : « لا ضابط للهيئة التي يلقي عليها المدرس عندهم ، فتارة يدرس ماشيا مسرعا ، ومرة جالسا في بيته ، ومرة في المسجد ، ومنهم من يدرس في أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى ، سواء كان ماشيا أو راكبا ، وقد يكون راكبا والطلبة يمشون على أقدامهم في ناحيته »[1] .

---

(١) الوسيط لأحمد الأمين ص : ٥١٩ مرجع سابق .

الفصل الثاني

أثر المحضرة في تطوير الثقافة العلمية والعملية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثر المحضرة في تطوير الثقافة العلمية .

المبحث الثاني : أثر المحضرة في تطوير الثقافة العملية .

المبحث الأول: أثر المحضرة في تطوير الثقافة العلمية .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أهم سمات تطوير الثقافة العلمية (النضج النحوي والأدبي والفقهي) .

المطلب الثاني : دور انتقاء المقررات في تطوير الثقافة العلمية (الألفية ، خليل نموذجا) .

المطلب الأول: أهم سمات تطوير الثقافة العلمية .

لقد أسهمت المحضرة الموريتانية في بناء الثقافة الإسلامية ، من خلال عمق المناهج ، وانتقاء المقررات ونضجها .

فقد هضمت العلوم وأنضجتها ، وقامت بتطويرها تطويرا ملحوظا ، ولم تكن ناقلة فحسب ، بل كانت مضيفة ومطورة ، ولتشعب الموضوع فإننا سنتحدث عن ثلاثة محاور ، وهما النضج النحوي ، والأدبي ، والفقهي .

أولا : النضج النحوي في المحضرة :

لقد قام علماء المحضرة بصناعة تحويلية ، انتزعوا أصولها الأولى من كتب ابن مالك ، ثم استمدوا فروعها من أدوات ابن هشام ، وأعادوا إليها تنبيهات الأشموني وتخريجات الدماميني ، فصنعوا من هذا المزيج مجموعة هائلة من القطع المتنوعة ، فقدموها بضاعة منظومة في دروسهم الشفوية ، حتى استطاعوا بذلك خلق ثقافة تحويلية ، أُنزلت عن طور الاختصاص العلمي إلى مستوى الأدب

الشعبي ، فصارت تمارس لذاتها ، ويتذوقها الناس في المجالس .

وصاروا على خطتين : التبسيط في المختصرات ، والتعمق في المطولات[1] ، وقد اعتمدوا ألفية ابن مالك ، وطرة المختار ابن بونا حفظا واستيعابا .

وقد اشتركت منظومة ابن بونا مع الألفية ، في سهولة الحفظ ، وامتاز تسهيل ابن بونا بالتعمق والتخصص ، والثروة اللغوية ، والشواهد الشعرية إلا أنه يبقى للألفية سبقها ونضجها وتميزها ، وقد سبق المختار بن الأمين الحيبلي المختار بن بونا في هذا المنحى بكتابه (شافي الغليل) الذي لخص فيه توضيح ابن هشام ، وتصريح خالد الأزهري ، ونصوص الأشموني ، وآراء ابن الدماميني في (شرح التسهيل) ، وقد أكثر من الأمثلة القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد ذكر محمد محمود بن التلاميذ التركزي أن ابن الأمين الحيبلي كان أحد مشايخ ابن بونا ، وهذا ربما يفسر أوجه التشابه بينهما[2] .

وقد قام الحسن بن زين القناني رحمه الله تعالى بتطوير المدرسة البونية ، واعتمد نظم المسائل النحوية ، كما خدم علم الصرف بتوشيحه (لامية الأفعال) لابن مالك ، التي أصبحت فيما بعد مقررا معتمدا في الصرف ، حيث نظم ما لم ينظمه الحضرمي وابن مالك في طرته المعروفة ب(طرة الحسن ابن زين) ، وقد أعاد صياغتها الشيخ محمد سالم بن عبد الودود رحمه الله[3] ، وقد انتشرت الثقافة البونية ، النحوية والصرفية ، على يد طلابه في كافة أرجاء موريتانيا ، من (محضرة يحظيه) في ولاية الترارزة ، إلى محضرة أهل بيه في الحوض الشرقي ، وما بين ذلك من المحاضر ، وقد كانت هذه المحاضر وارثة لمحضرة بن بونا ، ولم يكن النحو

(١) تاريخ النحو العربي ص ٥٤٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦٢-٥٦٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٤٩- ٦٥٣ .

مقصورا على مدرسة المختار بن بونا فقد عرفت الحركة النحوية في عهد مبكر بمدينة ولاته ، على يدي علمائها الأجلاء[1] .

ثانيا : النضج الأدبي :

لقد بدأ الشعر الشنقيطي بعد القرن العاشر على شكل منظومات في أغراض مختلفة ، كالتوسل والابتهال[2] .

وقد نضج نضجا نسبيا في القرن الثاني عشر ، وزاد بعد ذلك حتى بلغ أوجه في أواخر القرن الثالث عشر ، وبدايات الرابع عشر .

فظهرت المعارضات كمعارضة ابن الطلبة لحميد بن ثور الهلالي ، والشماخ بن ضرار[3] رضي الله عنهما ، كما حاكى الشعر الشنقيطي القصيدة الجاهلية بكل خصائصها ، والإسلامية[4] ، والعباسية والأندلسية ، واستعمل كافة البحور ، وخرج إلى أنماط أخرى أحيانا[5] .

وشمل إنتاجه الشعري كل الأغراض ، وتفنن في كل الأساليب ، حتى إنه حاكى الفن الحساني أحيانا ، كقصيدة محمد اليدالي[6] : « صلاة ربي مع السلام »، وخرج أحيانا عن البنية المعروفة للقصيدة ، بإعراضه عن البداية الغزلية أحيانا ، والالتزام بها أحيانا أخرى .

وقد حافظ الشعر الشنقيطي على نضجه في عصر الانحطاط ، في وقت

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧٧- ٦٧٨ .
(٢) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر ص ٨٤ .
(٣) الوسيط ص١١٩-١٢٩ .
(٤) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر ص ٢٧٠ ص٣٤٨-٣٤٩ .
(٥) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر ص١٦٧ .
(٦) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر ص ٨٨ .

خفت فيه بريق الأدب في العالم العربي والإسلامي ، بل إنه نحى منحى التجديد قبل كثير من المجددين المشهورين في المشرق ، وأكبر دليل على ذلك قصيدة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا التي يقول في فيها :

يا معشر البلغـــــاء هل من لوذعي يهـــــدي حجاه لمقصـــــد لم يبدع
إني هممت بأن أقول قصيدة بكرا فأعيـــــاني وجـــــود المطلـــــع
لكم اليد الطولى عـــــلي إن انتم ألفيتمـــــوه ببقعـــــة أو موضع
فاستعملوا النظر السديد ومن يجد لي منكم ما أحـــــاول فليصدع
وحذار من خلع العذار على الديار ووقفـــــة الزوار بـــــين الأربع
وإفاضة العـــــبرات في عرصاتها وتردد الزفـــــرات بين الأضلع

إلى أن يقول :

فجميع هذا قـــــد تداوله الورى حتى غدا ما فيه موضع إصبع[1]

وما ذلك إلا لتشبثه بالثقافة المحضرية ، التي غذته بالفصاحة ، وأشبعته بالمضامين ، حيث إن معظم الشعراء متضلعون من اللغة ، ومتشبعون بالعلوم الشرعية ، وقد كان لمعظمهم محاضر ومؤلفات[2] ، وظهرت القاموسية في شعرهم.

---

(١) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر والقصيدة في الوسيط في معجم تراجم أدباء شنقيط ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٢) محمد ابن حنبل الحسني ألف كتاب ري الظمآن في تفسير القرآن ومؤلفات أخرى - الشعر الشنقيطي ص ١٣٢ . ونظم محمد ابن الطلبة التسهيل لابن مالك ونظم لخليل - الشعر الشنقيطي ص١٤١ ولابن محمدي شرح على مختصر خليل وأنظام أخرى الشعر الشنقيطي ص ١٤٣ ولمولود ابن احمد الجواد شرح الكوكب الساطع في أصول الفقه وشرح الوسيلة لابن بونا الشعر الشنقيطي ص ١٥١ .

وقد استعمل الشعراء كافة أنواع البديع ، فمن التشبيه الرائع قول المصطفى بن جمال :

كأن عيني وقلبـــــي بعدكم طرفا غصن من البانـــــة الخضراء فينان
يســـــيل جانبه ماء إذا اشتعلت نار مؤججـــــة في الجانب الثاني[1]

وقول بوفمين المجلسي في التشبيه :

جمعت بين سواد الليل والوَضَحِ بين الصباح وبين الروعِ والفرح

وقول الذيب الحسني في التشبيه التمثيلي :

يخضن بها بحـــــور الآل خوضا فهن ســـــفينها وهـــــي اللآلي

ومن الاستعارة التصريحية قول ابن رازكة :

وبحر ندى ما للفرات انســـــجامه ودجلة لا تحكيه فســـــحة مورد

ومن البديع قول محمد اليدالي في المقابلة :

وهـــــؤلاء فـــــي حريـــــر وغـيرهـــــم فـــــي هنـــــاء

وقد خرجوا في نظمهم إلى ما يشبه المسمطات المربعة ، كما في قصيدة :

صـــــلاة ربي مع الســـــلام على حبيبي خـــــير الأنام[2]

وقد تطور النظم التعليمي وكثر ، حتى غزته أساليب الصياغة الأدبية ، حيث تأنق بعضهم فيها ، والتزم ما لا يلزم ، كالنابغة الغلاوي[3] :

---

(١) الحياة الثقافية المختار بن حامدن .

(٢) الشعر الموريتاني في القرن الثني عشر من خلال الذيب الحسني – ولد رازكه - محمد اليدالي - بوفمين – بحث لنيل الإجازة في اللغة والأدب جامعة نواكشوط للباحثة هند بنت للهاه ص ٦٤ -٦٦ .

(٣) النابغة الغلاوي : اشتهر بالعلم والورع وسافر من أرض الحوض لطلب العلم فكان كلما أتى شيخا سأله ماذا تريد أن تقرأ فيتركه حتى وصل إلى العلامة أحمد ابن العاقل=

(دانيـــــة عليهـــــم ظلالهـــــا) مملوة مـــــن عســـــل قلالها[1]

وكعبد الله بن الحاج حماه الله[2] ، حيث ألبس المنظومات حللا زاهية :

ولم أكـــــن جذيل هـــــذا الفن ومـــــا عـــــلي لومـــــه لأني

شـــــغلت بالنحـــــو وبالبيان وإن هـــــذان لســـــاحران[3]

وقد وصلت القصيدة في بعض الأحيان ، إلى مستوى من الإبداع العروضي: أن تُقْرَأَ في ثلاثة بحور كما نجد عند محمد بن حنبل ، فله قصيدة بديعة تسمى الزرقاء ، يمدح بها الشيخ سيديا ، وهذه القصيدة تقرأ في ثلاثة بحور ، فهي كلها من بحر الكامل ، ثم تقرأ أشطارها الأُوَلَ في بحر المديد ، والثواني في بحر البسيط، أو العكس ومطلعها :

برزت عواتق ديـــــن أحمد ترفل وافى بها الغـــــوث الأعز الأكمل

وللشيخ سيديا قصيدة ، يمدح بها الشيخ سيدي المختار الكنتي ، تستخرج منها ثلاث قصائد لكل منها بحر ، أعنى أنها كلها من الكامل ، ثم تقرأ أشطارها الأول فتكون قافية من بحر المديد ، ثم تستخرج من أوائل أشطارها الثواني قافية البسيط ، ومطلعها :

=الديماني ، فقال له : "مشي" بمعنى (اقرأ ما شئت) ، فألقى عصى التسيار عنده وجعل يعله من معينه الجاري ومن كتبه نظم (بوطليحية) في تقويم كتب المذهب المالكي عرف بجودة النظم وغزارة العلم وهو من علماء القرن الثالث عشر الوسيط ص٩٣ .

(١) الشعر الشنقيطي ص ١٢٤-١٢٥ نظم (بوطلحية) .

(٢) هو عبد الله بن أحمد الحاج حماه الله الغلاوي البكري أحد أفراد وقته في العلم له في كل فن إليد الطولى ولم يكن في الحوض أحد مثله في زمنه كان إذا أفتي في مسألة تلقتها الناس بالقبول صاحب نظم الرسالة والأخضري وغيرها ولد في شنقيط وتوفي ١٢٠٩ه قربي النعمة الوسيط ص ٩٢ تحقيق نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني ماتريز الطالب الشيخ باي ابن المجتبي اشراف د محفوظ محمد ص ٤-٥ .

(٣) نظم عبد الله ابن الحاج حمى الله لرسالة ابن أبي زبد القيرواني .

طلعت ببرجك للبرية أســـــعد أيام جاد بـــــك الزمان الأجود

وقد جاء الشعر الشنقيطي مشبعا بالثقافة الإسلامية ، داعيا إلى الشيم ومكارم الأخلاق والتعليم والتأديب وكان للمديح النبوي حظ وافر ، وكذلك المديح والرثاء ، ولم يخل من فخر متوسط أو مبالغ فيه ، كما وجد الشعر في كل مناطق القطر بتفاوت[1] .

النضج الفقهي :

لقد قامت المحضرة بتطوير الفقه المالكي ، من خلال الحفظ والاستيعاب وحركة التأليف ، والاهتمام بالنوازل ، فألفوا فيها كتبا ، كنوازل المختار ابن الأعمش ، ونوازل سيدي عبد الله ابن الحاج ، ونوازل ابن أحمد فال ، ونوازل اباه بن محمد الأمين ، كما شاع عندهم السجال العلمي والمراسلات .

وقد أفادت المدرسة الفقهية من موارد مختلفة ، ففي الجهات الشرقية والشمالية والوسطى ظهرت المدرسة السودانية المصرية ، (مدرسة الحطاب) وكان ظهورها بارزا في الحواضر ، (تنبكت ، ولاتة ، ودان) وفي الجهات الجنوبية والغربية والشمالية ظهرت مدرسة الأجهوري ، وهي رافد مصري مباشر ، تمثل في مدرسة الفال الحسني ، الذي درس على علي الأجهوري وقد اشتد الاعتماد على هذا الرافد في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر ، إضافة إلى روافد أخرى ، منها الرافد الأندلسي ، المتمثل في كتب الباجي ، وابن رشد .

وقد ظهرت مدارس محلية عريقة ، منها : (الكحلاء) ، التي تأسست في القرن الحادي عشر ، على يد حبيب الله ابن المختار نل ، ولم تواصل نشاطها بسبب حرب شربه ، الذي قتل فيه المختار ، واستمرت على يدي حفيده الأول أحمد بابه

---

(١) الوسيط ص ٣٣٣ - ٣٣٤ وصفحة ٢٤٣ .

ابن الحاج ابن حبيب الله ، وهو من طلاب شيخ الشيوخ الحسني ، ومنها مدرسة أمين العتروسي ، والطالب صديق الجماني ، والمختار ابن انجبنان الحيبلي[1] .

وقد اختلفت طرائق العلماء في التعاطي مع التراث الفقهي ، فمنهم من اهتم بجمع أمهات المذهب ، كمحنض باب ، ومنهم من هضم المدرسة المصرية ، كمدرسة آل محمد سالم .

يقول الشيخ محمد المامي رحمه الله تعالى في تعليقه على الميسر شرح المختصر، ولوامع الدرر للشيخين محنض باب ، ومحمد بن محمد سالم :

الحمـــــد لله رب العالمـــــين على سعي الإمامين في إحياء ما اندرسا
ونجل ســـــالم ابد المصريات لنا لما سني الحث في الأمصار قد طمسا[2]

وقد دار السجال العلمي بين الفقهاء في مسائل كثيرة ، ففي العبادات اختلفوا في الطهارة ، في مسألة المسح على الجبيرة ، ومسألة التطهر بالماء المتغير بروث الماشية ، وفي مسائل الصلاة مسألة الصلاة في الطائرة ، وتعدد الجمعات في المصر الواحد ، والسفر للتعزية ، ورخصة القصر في البلاد السائبة ، وفي مسائل الزكاة اختلفوا في إخراج الزكاة قبل الوجوب ، وإخراج القيمة في الزكاة ، وفي مسائل الصوم هل يثبت الهلال بالأجهزة ، وفي مسائل الحج سقوط الحج عن أهل هذه البلاد ، وفي مسائل الذكاة اختلفوا في اللحوم المستوردة ، وفي مسائل النكاح اختلفوا في أبواب كثيرة ، منها نكاح ذات الوليين ، ونكاح السر ، والكفاءة ، وفي مسائل البيع اختلفوا في تحديد الأسعار ، والاحتكار ، وجواز التناهد (ونكالة)، وفي مسائل اللقطة لقطة الإبل في هذه البلاد ، وفي مسائل الحدود حكم التعزير

(١) المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوي ونوازل وأحكام أهل الغرب وجنوب الصحرى د.يحيى بن البري ط الشريف مولاي الحسن مجلد / ١ ص ١٩٣-١٩٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤-٢٢٥ .

بالمال ، كما اختلفوا في مسائل عقدية ، وتصوفية ، وقد أوصل يحيى بن البراء في مدونته المسائل المختلف فيها إلى مئة وتسعة وثلاثين مسألة[1] ، كما كثرت الفتوى والأحكام ، حتى وصلت إلى ستة آلاف وست مئة وعشرين[2] .

(١) المجموعة الكبرى الشاملة ص ٤٢٧-٤٣٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤٥ .

المطلب الثاني: دور انتقاء المقررات في التطوير .

إن الناظر إلى المقررات المحضرية ، يستيقن أنها نتيجة تجربة عميقة ، واختيار موفق ، لما تتمتع به هذه المقررات من خصائص ، أهلتها للاختيار من بين الكم الهائل من الكتب والمناهج ، سنذكر نماذج منها توضح ذلك :

١ – ألفية ابن مالك :

من المقررات المحضرية : الخلاصة (ألفية ابن مالك) ، وقد امتازت بميزات عظيمة ، فقد ألفها ابن مالك بعد نضج معارفه ، فكانت خلاصة بحق ، وقد اختارتها المحضرة ؛ لكونها تلائم حاجة المثقف الشنقيطي ، لحاجته إلى نظم شامل يسهل حفظه ، وتميزت بأساليب راقية ، فقد استعمل ابن مالك أسلوب الاختصار مثل قوله : حروف الإبدال (هدأت موطيا) .

وقد امتاز بحشر الأمثلة في بيت واحد :

«كـــــزره خالدا وقبلـــــه اليدا واعرفه حقه وخـــــذ نبلا مدا»

واستعمل أسلوب الإحالة :

صغ من مصـــــوغ منه للتعجب أفعل للتفضيل، وأُبَ اللَّذْ أبي[1]

كما جمع بين مدرسة الكوفة والبصرة ، وسلك منهجا متوسطا ، وتوسع في النموذج اللغوي ، وامتاز باستشهاده بالسنة خلافا لبعض متقدمي النحاة .

وقد استخدم ثقافة المثال ، مثل قوله : مبتدأ زيد وعاذر خبر . . . إلخ ، ومن

---

(١) تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ص ٥٥١ .

المعروف أن التدريس عن طريق ضرب الأمثال من أنجح وسائل التدريس .

كما عرف عن ابن مالك اعتماده تربوية المثال ، وكان ذلك شأنه في كتبه كلها؛ لأنه صاحب مبدأ ودعوة .

كطاهر القلب جميل الظاهر ، كزره خالدا وقبله اليدا - واعرفه حقه وخذ نبلا مدى ، فما أبيح افعل ودع ما لم يبح . . . إلخ .

ذلك جزء مما جعل المحضرة تعتمد الخلاصة منهجا أصيلا ، وتحوله إلى قطع منظومة ، وطرر منثورة ، وأدب شعبي ، وألغاز وأحاجٍ أحيانا .

وقد خدمت المحضرة ألفية ابن مالك بالشروح والحواشي ، ومن أجمعها كتاب ابن بونا ، الجامع بين التسهيل والخلاصة ، المانع من الحشو والخصاصة، قال صاحب الوسيط فيه : ويكفيه أنه هو الذي نشر النحو بعد دفنه ، وكفى الناس مشقات مؤونته ، وكانوا لا يتجاوزون قبله ما في الألفية وشروحها ، مع عدم معرفة الخطة التي يمكن للطالب أن يخزن في ذهنه ما يكون قريب التناول عند الحاجة إلى ذلك ، حيث نظم ما تخلف عن الألفية مما تضمنه التسهيل ، وألصق كل شذرة بما يناسبها ، وضم إلى ذلك طرته المفيدة ، وأتى على كل مسألة بالشواهد من كلام العرب[1] .

٢ - مختصر خليل بن إسحاق :

لقد اختارت المحضرة مختصر خليل مقررا فقهيا ، لما يتمتع به من ميزات فائقة ، حيث يرتكز الفقه المالكي عند أبناء المنطقة على مختصر أبي المودة خليل بن إسحاق الجندي (ت : ٧٧٦ هـ) ، فقد رضوا به عن سواه من كتب الفقه الأخرى ، سبيلا تبرئ ذممهم في الدين ، وتقليدا ممتثلا لشيوخه وأئمته ، متابعة

(١) الوسيط ص ٢٧٧ .

لأحمد باب التنبيكتي (ت : ١٠٣٦ هـ) في قولته المشهورة التي نقل عن ناصر الدين اللقاني : (ت : ٩٥٧ هـ) « نحن قوم خليليون ، إن ضل ضللنا » .

والمختصر هو تلخيص سادس للمدونة ؛ لأن صاحبه قام بتلخيص كتاب ابن الحاجب ، وهذا لخص كتاب ابن شاس ، وذاك لخص كتاب ابن بشير ، وذلك لخص مقدمات ابن رشد ، وهي خلاصة تهذيب البرادعي ، الذي هو تلخيص مسائل سحنون ، المعروفة بالمدونة .

وقد التزم خليل في مختصره هذا عهدة ما به الفتوى ، من الأقوال الراجحة والمشهورة ، واعتبر ترجيحات أربعة من كبار علماء المذهب ، ورجال المدونة هم: اللخمي ، وابن يونس ، والمازري ، وابن رشد .

وهو يضم أربعة وستين بابا ، مرتبة حسب الترتيب المتبع في المدونة .

قال عنه الشيخ العدوي في حاشيته : « إن الاشتغال بمختصر الشيخ خليل، أنفع من الاشتغال بالمدونة ، لما اشتمل عليه من زيادة المسائل عليه ، أو من بيان اختلاف المشايخ في فهمها ، وتأويلها ، وتحرير العبارة ، وتهذيبها ، والاقتصار على الراجح المشهور » .

وقال عنه الحطاب في مقدمة حاشيته : « وكان من أجل المختصرات على مذهب الإمام مالك ، مختصر الشيخ العلامة ولي الله تعالى خليل بن إسحاق ، الذي أوضح به المسالك ، إذ هو كتاب صغير حجمه ، وكثير علمه ، جمع فأوعى، وفاق أضرابه جنسا ونوعا ، واختص بتبيين ما به الفتوى ، وما هو الأرجح والأقوى ، لم تسمح قريحة بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، إلا أنه لفرط الإيجاز ، كاد يعد من جملة الألغاز » .

ولقد حظي هذا المختصر بالكثير من الشروح ، والتعاليق ، والطرر ،

والأنظام والاستدراكات ، التي تدور حول نصه ، وتتبع شوارده ، وقد تجاوزت شروحه المائة .

ويقول الحطاب أيضا : وقد اعتنى بحل عبارته ، وإيضاح إشارته ، وتفكيك رموزه ، واستخراج مخبآت كنوزه ، وإبراز فوائده ، وتقييد شوارده ، تلميذه العلامة الهمام ، قاضى القضاة تاج الدين ، أبو البقاء بهرام بن عبد الله بن عبدالعزيز بن عمر بن عوض الدميري القاهري رحمه الله ، فشرحه ثلاثة شروح ، صار بها غالبه في غاية البيان والوضوح ، واشتهر منها الأوسط غاية الاشتهار ، واشتغل الناس به في سائر الأقطار ، مع أن الشرح الأصغر أكثر تحقيقا .

وشرحه أيضا من تلامذة المصنف : العلامة عبد الحق بن الحسن بن الفرات المصري ، والشيخ العلامة جمال الدين عبد الله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسي شارح الرسالة ، وسلكا في شرحيهما مسلك الشيخ بهرام ، وإن كان ابن الفرات أوسع من جهة النقل .

وشرحه أيضا ممن أخذ عن المصنف : الشيخ العلامة يوسف بن خالد بن نعيم البساطي قريب البساطي المشهور ، ولم أقف على شرحه .

ثم شرحه أيضا العلامة مقدم - بكسر الدال المهملة المشددة - البساطي شرحا أكثر فيه من الأبحاث والمناقشة في عبارة المصنف ، وسلك مسلك الشارح في غالب شرحه .

ثم شرحه جماعة من المتأخرين ، وسلكوا نحوا من ذلك ، وبقيت في الكتاب مواضع يحتاج إلى التنبيه عليها ، وأماكن يتحير الطالب اللبيب لديها ، فتتبع الشيخ العلامة مفتي فاس وخطيبها ومقرئها ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي ابن غازي المكناسي رحمه الله من ذلك أماكن كثيرة ، وفكك مواضع من تراكيبه

العسيرة ، فأوضحها غاية الإيضاح ، وأفصح عن معانيها كل الإفصاح)[1] .

وقد خدمته المحضرة الموريتانية بنظمه وشرحه ، فقد نظمه كل من الشيخ محمد المامي رحمه الله ، ومن المعاصرين الشيخ محمد سالم بن عدود رحمه الله ، والشيخ مختار امحيمدات حفظه الله ، وغيرهم .

وقد كثرت شروحه حتى زادت على الخمسين ، وقد اعتنت المحضرة بتكميل ما لم يذكر ، واستدركت عليه ، وخالفته أحيانا ، وبالغ بعض مشايخها فيه ، وتوسط بعضهم كالشيخ سيدي المختار الكنتي ، والشيخ بداه رحمهما الله .

حيث يقول الشيخ سيد المختار الكنتي رحمه الله :

وأنفعهـــا نص الرســـالة قبله ونص خليل جاء بالدر والخشب[2]

ويقول الشيخ بداه رحمه الله :

فـــإن يكن خليـــل وفقها فلا ضير إذا نور على نـــور علا[3]

وإن يكـــن منه الخطـــا بينت خطـــأه بآيـــة بينـــة

وتكاد تكون ظاهرة الانتقاء في المقررات ظاهرة شاملة ، فمن نظر إلى كتاب (الدرر اللوامع في قراءة نافع) ، وجد فيه خلاصة ما في الشاطبية من قراءة نافع ، ومن نظر إلى كتاب (المحتوي الجامع) المعروف برسم (الطالب عبد الله) ، وجد

---

(١) المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء د يحي ولد البراء م ١ ص ٢١٣ -٢١٤ الناشر شريف مولاي الحسن ابن مختار الحسن .

(٢) من قصيدة طويلة للشيخ سيد المختار الكنتي (لم أعثر عليها وسمعتها من الشيخ بداه بن البوصيري) .

(٣) نظم الحجر الأساس للشيخ بداه بن البوصيرى رحمه الله مع كتاب أسنى المسالك في أن من عمل بالراجح ماخرج عن مذهب مالك صـ ٣٣٤ ، ٣٣٥ المطبعة الوطنية بنواكشوط ١٩٧٣م .

الراجح من روايتي الداني وأبي داوود ، ومن قرأ ديوان غيلان عرف قيمته اللغوية وثراءه ، ومن قرأ مقصورة ابن دريد ، ومثلث ابن مالك ، وموطأة الفصيح ، والمقصور والممدود ، والديوان الستي ، والحماسة ، زال عجبه من وفرة الثقافة اللغوية للمحضرة ، ومن قرأ تحفة الحكام في المعاملات ، أو رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم ابن عاشر الأندلسي (وكفاف المبتدي) ، (ومطهرة القلوب) في السلوك ، وقف على كمال النضج ، وحسن الاختيار ، وهكذا كل المقررات المحضرية .

المبحث الثاني: أثر المحضرة في تطوير الثقافة العملية .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الأثر السياسي (المقاومة العسكرية والثقافية) .

المطلب الثاني : الأثر الاجتماعي (في تكوين قيادات فاعلة) .

المطلب الثالث : الأثر التربوي (تضحية العالم) .

المطلب الرابع : البيئة المحضرية (الاحتساب والإيثار) .

المطلب الأول: الأثر السياسي (المقاومة العسكرية والثقافية)

لقد قاومت المحضرة المستعمر الغازي مقاومة مسلحة ، ومات كثير من طلابها وشيوخها دفاعا عن الدين ثم الوطن .

فقد احرق المستعمر ما لا يقل عن أربعين محضرة بمكتباتها في الجنوب الموريتاني[1] ، وقد تعطلت بعض المحاضر المرموقة مثل : الكحلاء ، والصفراء بسبب المقاومة ، وقد قام الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل القلقمي رحمه الله وطلابه بجهاد مستميت ضد الاستعمار ، وقد عارض كثير من مشايخ المحاضر الاستعمار ، وحرموا التعاطي معه ، واتهموا كل من يتعاطى معه في دينه، وقاطعوه اجتماعيا فلا يزوج ولا يعامل ، كما أنهم حاربوا المدرسة النظامية التي جاء بها المستعمر ، ومنعوا أبناءهم من الالتحاق بها منعا باتا ، وقاوموا الاستعمار، بتحصين أفراد المجتمع عن طريق القصائد ، كقصيدة ابن الشيخ سيديا :

---

(١) المجتمع السونوكي ص ٥٦.

حمـــــاة الديـــــن إن الدين صارا أســـــيرا للصوص وللنصارى
فـــــإن بادرتمـــــوه تداركـــــوه وإلا يســـــبق الســـــيف البدارا
بأن تســـــتنصروا مـــــولى نصيرا لمن والى ومن طلـــــب انتصارا[1]

وقد سبقه والده الشيخ سيديَّ الكبير ، فدعا إلى توحيد الصف ضد المستعمر، وإصلاح ذات البين ودفع الأمراء إلى مقاومة الغزو الفرنسي ، بل إنه عمد إلى توفير العتاد للمقاومة محاولا تصنيع البارود محليا وما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ باسم (اعليب البارود)[2] .

وقد دعى اجدود بن كتوشني[3] إلى مؤازرة الأمير محمد الحبيب ، في مواجهة الخطر الفرنسي باستخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية ، حيث يقول في قصيدة طويلة منها :

يا حبيبا أوجـــــف عليهم بخيل وبرجـــــل يهـــــدم الأمصارا
وأعدوا من القوى ما اســـــتطعتم واشتروا الخيل والقلاص المهارا
لا تعينوا بالعلك حزب الأعادي أتعينـــــون آثـــــما كفـــــارا
فاقطعوا عنهم الـــــشراء حذارا أن يصروا عـــــلى الأذى إصرارا[4]

وقد استشهد رحمه الله تعالى في مقاومة المستعمر[5] .

---

(١) الوسيط ص٢٤٧ .
(٢) محاضرات الموسم الثقافي ٢٠٠٥ م .
(٣) اجدود ابن أكتوشني العلوي عالم نحرير اشتهر علمه وله صيت حسن وطلب عليه كثير من الزوايا واشتهر بالفقه واللغة والنحو واستشهد في مقاومة الاستعمار . الوسيط ص٨٢ .
(٤) دور المحاضر في موريتانيا ص ١٦٩- ١٧٠ .
(٥) دور المحاضر في موريتانيا ص ١٧٨ .

وعارض كثير من العلماء بشدة ما ذهب إليه الشيخ بابا بن الشيخ سيديا ، والشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل رحمهما الله من التأول لوجود الاستعمار ؛ سدا لباب الاقتتال الداخلي يقول محمد الخضر بن ما يابا رحمه الله :

والجور والإســـــلام في بلادنا خير من العدل مع الكفر الجلي[1]

وقد كان لموقف الشيخين هذا أثر عظيم ، حيث فت في عضد المقاومة ، نظرا لما لهما من سلطان روحي ومع ذلك فقد حققت المقاومة إنجازات رائعة ، وكانت لها أيام مشهودة ، وكان مصرع المستشرق كبولاني على يد أحد أبناءها ، وهو سيدي بن مولاي الزين ، ومثل استشهاد بكار ولد سويد أحمد وأحمد ولد عيده في المقاومة مشاركة الأمراء للعلماء في مقاومة المستعمر وصده .

وممن كان له دور في المقاومة مدرسة فوته ومن رجالها الشيخ (سليمان بال)، وقد تمثلت المقاومة الثقافية في عدة أمور منها :

١ – هجرة العلماء إلى أصقاع مختلفة ، حيث جابوا الأقطار كلها ، محافظين على رسالتهم المحضرية .

٢ – كانت المحضرة سدا منيعا أمام عادات المستعمر وتقاليده ، حيث بقي المجتمع مسلما متماسكا محافظا على دينه ولغته ، مع سعي المستعمر للقضاء على رافده الأساسي (المحضرة) وتفكيكه ، وزرع الفتن بينه ، فقد حرق المستعمر بعض المحاضر في كيهيدي للأخوة الزنوج ، أسوة بأخوتهم من البيظان .

٣ – قامت المحضرة بمقاطعة المستعمر تجاريا .

٤ – قامت بإرسال رجالاتها لنشر الإسلام في غرب إفريقيا ، وقد شعر المستعمر بخطورة هذه الخطوة فسعى للقضاء على المدارس القرآنية ، وأرسل

(١) دور المحاضر في موريتانيا ص ١٣٧ .

التقارير في ذلك .

٥ – أن المحضرة استقبلت طلابا من غرب إفريقيا فتخرجوا منها ، ثم كانوا بعد ذلك رسلها في نشر الإسلام ومقاومة الاستعمار ، فسليمان بال الذي قام بالثورة الفوتية على ضفة نهر السنغال كان قد تخرج من محضرة تجكانت ، وعبد القادر كان الذي كان أول إمام شرعي في فوته قد تخرج من محضرة خديجة بنت العاقل ، وكان دولة لابن بونا ، وكان محببا للزوايا ، وقد سعى لإقامة دولة إسلامية ، كما تخرج أحمدو بنبا الذي قاد حملة إسلامية في السنغال على يد محمد المختار بن محمد الكريم ، كما تخرج عمر الفوتي وأحمد لبوا الذي حكم إمبراطورية ماسينا من المحضرة[1] .

٦ – كما استخدمت المحضرة الفتاوى التي تحرم التعاطي مع المستعمر ، وقد قاطعت بعض القبائل مقاطعة كاملة ، مما أدى إلى تهميشها بعد ذلك .

(١) المحاضر الموريتانية وأثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ص ١٠٩ – ١١٠.

المطلب الثاني: الأثر الاجتماعي (تكوين قيادات اجتماعية فاعلة. .) .

لقد قام علماء المحضرة بدور اجتماعي رائد ، فالعالم إضافة إلى كونه إمام المسجد ونجعة الواردين والسائلين ، فهو القاضي الذي يفصل في الأمور ، وهو المصلح الاجتماعي في النزاعات القبلية والأسرية وهو المأذون في عقود الأنكحة ، وهو محتسب على العامة في إقامة الحدود ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو كهف الضيوف وذوي الحاجات .

ومن الأمثلة البارزة في هذا المجال :

الشيخ سيديَّا بن المختار بن الهيبة ، (وهو العلم الذي رفع أهل قطره واستظل به أهل دهره)[1] ، فقد اجتمع له من القبول ، والسيادة ، والكرم ، وقضاء الحاجة ، والإصلاح بين الناس ، ما لم يجتمع لغيره . . ! ، وقصائد الشعراء في زمنه خير شاهد على ذلك .

يقول الهادي بن محمدي في رثائه[2] :

يا للحوائج والخطوب إذا دهت ذهـــب المعد لهـــن كان فيا لها
رزء أصاب العالمـــين جميعها أطفالهـــا ونســـاءها ورجالها
كهف البرية حامـــل أعباءها دون الورى ومصـــدق آمالها
غوث الأنام إذا الســـنون تتابعت والأرض أصبح ماءها صلصالها
كم كاعبٍ أو فـــارضٍ أو يافع أو عائـــلٍ قدمت إليـــه فعالها

(١) الوسيط ص ٢٤٠ .
(٢) الوسيط ص ٧٥-٧٦ .

ويقول فيه ابن أحمد دام الحسني[1] رحمه الله :

أحنى على الشعث والأيتام من نصف ... على صغير لها قـــــد أكبرت عطبه
وكم ثأي بينـــــما حيين أصلحه ... خرز الصناع لمســــــني أجرة قربه
أما الرقاع فأعـــــلاق يجود بها ... والسير نصح بليغ يبتغي القربه.

إلى غير ذلك مما قيل فيه .

قال صاحب الوسيط متحدثا عنه (فلم تزل فضائله تبدو ، حتى أذعنت له الزوايا وحسان ، وصار مثل الملك بينهم ، فلا يعقب أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تنثال عليه ، ويفرقها بين الناس .

وكانت العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا ، فيجتمع عنده أحدهم بمن قتل أباه وأخاه ، فيجلسهما على مائدة واحدة ، وإذا بلغ الجاني نواحي البلد الذي يقيم فيه أمن على نفسه ، ولم يمض عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس ، يطعمهم ويكسوهم ويقضي مآربهم ، حتى لقي الله ! ولا يسأله أحد حاجة إلا أعطاه إياها بالغة ما بلغت .

وكان يبلغه أن الطريق منقطع ، فيحفر فيها الآبار ويبعث المؤن الطائلة لقرى المارين .

وممن كان له دور اجتماعي بارز ، عقد شنقيط الوسيط وبدرها المنير محنض بابه بن عبيد الديماني الذي كان حصنا حصينا، وحرما آمنا ، وبلغ من سيادته أنه كان يقيم الحدود تحت سلطة الأمير ، (وقد أراد بعضهم أن يراقب شغله، فرآه في وقت الصباح يسوق بقرة إلى موضع الرعي ، ثم يذهب والقادوم على ظهره يقطع بها أعواد الشجر ، ليطوي بها بئرا يحفرها في محل صعب ، ثم يعود بكثير

(١) الوسيط ص ٢٩٣ .

من الحطب على عاتقه ، ثم يرجع إلى البئر ليقف على عبيده المكلفين بحفرها ، ثم يرجع ليدرس الطلبة ، ثم يشتغل بقرى الأضياف لأنه كان موردا ، ثم يبقى إلى أن تنام الناس ، فيشتغل بتأليف كتابه الميسر في شرح المختصر)[1] .

وممن كان له دور اجتماعي بارز الشيخ أحمد بن الأمين بن الفراء التندغي ، فقد كان جوادا ظريفا مزاحا كثير البشاشة ، يجيد ركوب الخيل والسباحة ، وكان يحسن أربع لغات : العربية ، والحسانية ، والشلحية ، والسودانية ، (كلام لكور)، ولعله كان يعرف لغة (إفلان) .

وقد كان كالملك لأهل السودان يرجعون إليه ، وتولى القضاء في بلدة لتين رئيس بول ، بالسنغال[2] . وممن كان له دور اجتماعي بارز الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل القلقمي ، فقد كان معه عشرة آلف نسمة ، ما بين أرملة ، ومزمن ، وصحيح ينفق عليهم جميعا . . يزوج رجالهم ، ويجهز نساءهم ويعلمهم ويربيهم ، ولا يمضي عليه يوم إلا وقد بعث قافلة تأتيه بالميرة ، وقدمت إليه أخرى تحملها ، مع قيادته في الجهاد ضد الاستعمار[3] . وممن كان له دور اجتماعي كذلك الشيخ محمد بن أجّ القلقمي الذي كان صاحب شخصية اجتماعية قيادية بامتياز ؛ مطلعا على أحوال الناس وقضايا المجتمع مهتما بالمشاركة حريصا على الإسهام النوعي .

ومن يرى كيف كان يدير برنامجه اليومي في محظرته وحيِّه يعرف أنه كان مؤسسة في رجل ، وهو الذي يدرس الطلاب وينفق عليهم ، لا يُسأل أحد منهم عن شيء ، وينفق على الأسر المحتاجة من حيه ، بل هو من يوفر الماء لكل أسر

(١) الوسيط ص ٢٣٦ -٢٣٧ .
(٢) الوسيط ص ٣٤٧ المنارة والرباط ص ٢٦٦ .
(٣) أعلام الشناقطة ص ٢٠٠ الوسيط ص ٣٦٥-٣٦٦ .

الحي كل يوم من خلال طلابه تحت إشرافه المباشر ، وهو يقضي الوقت جيئة وذهابا وراء آلة السقي التي يحملها الطلاب ، حتى يقف قريبا من بيت الأسرة التي تفرغ لديها ، ثم يعود وهكذا ، وأثناء ذلك يستمع لطلابه ، كما يهتم بشئون الماشية ويتابعها حين تسرح وتروح ، غير ناس عيادة المريض أو قِرى الضيف، ويذهب إلى المدينة للامتيار وجلب النفقة ، ويسعى في الشفاعات ، ويقوم بالصلح في خصومات المجتمع .

ويحث على الصدقة ، وينادي بها بأعلى صوته من حيث يكون بعد طلوع الشمس فيقول (في ندائه) : «باكروا بالصدقة يبارك لكم في المال والنفقة» ، «باكروا بها فإن البلاء لا يتعداها» فيبادر بها أهل الحي حسب الطاقة والإمكان ثم يقوم بتوزيعها في المحتاجين[1] .

وهذا الدور الاجتماعي من طبيعة العالِم المحضري المعهودة .

(١) مقال كتبه أحد طلابه وهو سيدي محمود ولد الصغير وقد حدثني عن دوره الاجتماعي مشافهة في شعبان ١٤٣٢ هـ وسبق أن حدثني عن الشيخ مشافهة .

المطلب الثالث: الأثر التربوي (تضحية العالم . .)

إن العالم المحضري يمثل قمة التضحية بالنفس والمال والراحة في سبيل العلم ، حيث يستغرق التدريس ليله ونهاره ، ابتغاء وجه الله تعالى ، وليس له أوقاف ، ولا جرايات ، أو أرزاق ، ولا يأخذ من الطلبة بل يعطيهم.

زد على ذلك ما يكابده من مشاق الدنيا ، فهو مورد للضيوف والمستفتين وطالبي الحاجات ، وهو لا يلزم الطلبة بالاشتراك في درس واحد ، فتراه مرة يدرس لعشرة من التلامذة الألفية ، يختلف درس كل واحد عن صاحبه ، ولا ضابط لهيئة إلقاء الدرس ، فتارة يدرس ماشيا مسرعا ، ومرة في بيته ، ومرة في المسجد ، وأحيانا أثناء الارتحال . .

وقد يكون راكبا والطلبة يمشون على أقدامهم ناحيته ، وهو مع ذلك صابر يؤدب برفق ، كقول ابن أحمد فال التندغي :

وفعـــــل ما لا ينبغـــــي لا ينبغي لتنـــــدغ ولا لغير تنـــــدغِ[1]

وأما وقت الدراسة فيبدأ غالبا في وقت الضحى عند ما يفرغ الناس من خروج مواشيهم وإفطارهم ، ثم تتوقف الدراسة وقت الزوال ، وتستمر بعد الظهر إلى الليل ، وقد يدرس بعض المشايخ الليل والنهار إذا استدعت الظروف ذلك ، وهذا حال أكثر أهل البوادي ، إلا ما كان من تجربة يحيى ابن أحمد فال الذي نظم استعمال الزمن مستعينا بالظل في النهار ومنازل النجوم في الليل ، فجعل الصبيحة للغة ، فإذا تقلص الظل إلى سبعة أقدام بدأ أهل الباب (الجزء

(١) الوسيط ص ٥١٨-٥٢٠ .

الثاني من مختصر خليل) دراستهم ، واستمروا إلى الظهر ، وجعل مابين الظهرين لطلبة النحو ، وما بين العصر والمغرب لطلبة الفقه (غير أهل الباب) ، وما بين العشاءين للنساء، وما بين العشاء الأخيرة والصبح لمن تخلف من الطلبة ، وليس هذا جدول الشيخ فحسب ، بل إنه يدرس فنونا أخرى ، وقد شكا بعض طلبة الباب ضيق الوقت فقال :

الوقـــت ضيقه عـــلى الألواح ألواح أهل البـــاب ذو اتضاح
مـــع أنه فيـــه يـــكل الفهم فطلـــب التشريـــك فيه ظلم
والرأي أن يزاد قـــدر قدمين من سابق شـــفاء تين العلتين

وأما محاضر المدن فهي أكثر عناية بتنظيم الدراسة وضبط مواقيتها ، وفي هذا الإطار تندرج تقاليد المساجد ، وهي مراكز علمية في المدن العتيقة .

ففي ولاتة وشنقيط ، يقرءون الحديث بين الظهر والعصر ، وفي ولاتة يدرسون علوم القرآن الكريم ما بين العشاءين[1] .

ومن أمثلة المضحين في التدريس المحضري الطالب أحمد بن محمد رارة التنواجيوي رحمه الله ، فقد كان يبدأ تدريس الطلبة في الثلث الأخير من الليل ، ثم يشتغل بأوراده بعد صلاة الصبح إلى أن يصلي الضحى ، ثم يجلس للتعليم إلى قرب الزوال فينام نوما خفيفا ، ثم يشتغل بالتعليم ما بين الظهرين وما بين العصر والمغرب ، ثم يحيى ما بين العشاءين ، ثم يقوم الليل بعد العشاء أمام داره[2] .

وكان يحظيه بن عبد الودود رحمه الله يجلس للتدريس بعد صلاة الضحى

---

(١) المنارة والرباط ص ١٦٧ .
(٢) فتح الشكور ص ٥٩-٦٠ .

حتى الزوال ، وبعد صلاة الظهر حتى تغرب الشمس[١] ، وكان المختار بن بونا رحمه الله (لا يمل من التدريس ليلا ولا نهارا)[٢] .

وقد مكث أحمد بن خليفة العلوي خمسين سنة يدرس في شنقيط[٣] .

وقد أفنى الطالب البشير عمره في طلب العلم (وأسهر جفونه في النظر، وأحيى ليله في تحصيله بالسهر يعمر الأوقات ، فنهاره في التدريس والشرح والإفتاء ، وليله في المطالعة ، وكان على غاية اجتهاد ، فكان يُرَى على عمامته أثر الدخان لكثرة مطالعته بالليل ! ولم تيبس دواته سنين عديدة[٤] .

وكان الطالب أحمد بن عمر الوافي من هؤلاء المضحين ، قال عنه صاحب الفتح الشكور : (وهو لا يمل من التعليم ، فتراه يعلم التلميذ نجيبا أو بليدا ، والنهار كله ، والليل حتى يغلبه النوم)[٥] .

وكان محمد عالِي بن عبد الودود رحمه الله لا ينام إلا ساعة ونصفا في أربع وعشرين ساعة ، ووقته موزع بين العبادة والتدريس والتأليف ، وكان غالب وقته في التدريس[٦] ، وقد ورث أبناؤه حظا وافرا من سيرته .

ومن أمثلة المضحين في التدريس العلامة اباه بن عبد الله ، والحاج بن فحف والشيخ أحمد بن محمذن فال وأبناءه والشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم ، والقصد المثال لا الحصر .

---

(١) المنارة والرباط ص ١٦٨ .
(٢) الوسيط ص ٢٨١ .
(٣) فتح الشكور ص ٥٦ .
(٤) فتح الشكور ص ٧٨ .
(٥) فتح الشكور ص ٥٩ .
(٦) حدثني حفيده الشيخ محمد الحسن الددو حفظه الله .

وبالجملة فقد بلغ مشايخ المحضرة شأنا عظيما في خدمة العلم ، وبذلوا كل ما يملكون في سبيل ذلك .

المطلب الرابع: البيئة المحضرية (الاحتساب والإيثار)

إن حياة الطالب المحضري تمثل قمة الإيثار والاحتساب ، والمواساة والتعاون على البر والتقوى ، والتدين العملي .

والمحاضر ليست مدارس علمية فقط ، وإنما هي مدرسة للحياة ، فهي بطبيعتها تكوِّن طلابها جسميا وعقليا، ونفسيا ، تكوينا متكاملا لمواجهة أعباء الحياة الخشنة التي تحيط بهم في تلك الصحراء القاسية . فحياة المحضرة مبنية على الغربة ، وشظف العيش ، وتحمل المسؤوليات ، اعتمادا على الذات .

فالعادة أن يترك الطالب حي أهله وعشيرته حتى ولو كانت فيه محاضر، ويضرب أكباد الإبل ليلتحق بمحضرة نائية ، يستطيع أن يتفرغ فيها وينقطع لمهمته التعليمية ، بعيدا عن مهام الأهل وشؤون الأسرة ومعارف الحي ، ويجتمع بذلك في المحضرة مجموعة من الطلبة الغرباء ، من مناطق مختلفة وقبائل شتى ، وفي هذه الظروف تتسم حياة المحاضر بشظف العيش وضيق ذات اليد ، فالطالب المحظوظ هو ذلك الذي يصطحب معه ناقة أو بقرة حلوبا إلى المحضرة ، وهناك كثيرون يأتون ولا زاد لهم سوى الهمة والعزيمة ، فتتسع لهم صدور إخوانهم من الطلبة والحي الذي يقطنون فيه ، فيقاسمونهم العجين واللبن والماء ، بلا من ولا أذى ، وأما السكن في المحاضر فالغالب فيه أن يكون عبارة عن أعرشة يبنيها الطلاب من جذوع الشجر وعيدان الثمام ، أو الحشائش المختلفة ، بينما تجري عملية شرح الدرس عند المدرس في خيمة الشيخ ، وإذا كان الطلبة لا يملكون في الغالب ما يقدمونه للشيخ من عرض الدنيا ، فإنهم يعتاضون عن ذلك بخدمته

بأيديهم ، ويتبارون في هذا السبيل ، ويستهين التلاميذ كل هذه المصاعب وغيرها مما لم نذكره ، ويعتبرونها ثمنا رخيصا في سبيل الغاية العظمى التي هي رضي الله ، والبضاعة الغالية التي هي العلم .

ومن القواعد المسلمات في عرف أهل المحاضر ، أن العلم لا ينال إلا بشروط وأركان لا بد من توفرها في التلميذ ، وإلا فإنه لن يكون من أهل هذا الشأن ، ويوردون في ذلك منظومات وأبيات ، من أمثال قول الشافعي :

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وصحبة أستاذ وطول زمان

وقول حماد المجلسي الشنقيطي (ق ١٣) هـ :

له تغرب وتواضع واترع ... وجع وهن واعص هواك واتبع
حتى ترى حالك حال المنشد ... (لو أن سلمى أبصرت تخددي
ودقة في عظم ساقي ويدي ... وبعد أهلي وجفاء عودي)

ويقول أيضا :

واقصد به وجه الذي أنشاكا ... ولا تناو فيه من ناواكا[1]

لقد كانت الحياة المحضرية في بلاد شنقيط قاسية أكثر مما كانت عليه حياة طلاب العلم في بلد آخر ، خصوصا إذا نظرنا إلى ما كان عليه الطلاب من سعة الحال في المدارس العتيقة ، كمدارس العراق ، والأزهر ، والزيتونة ، والقرويين .

وقد قارن أحمد بن الأمين صاحب كتاب الوسيط بين ظروف الطلبة في مصر والمشرق ، وظروف الطلبة في بلاد شنقيط بقوله : (إذا تأملت يا مشرقي طالب العلم في أرض شنقيط ، علمت أنك تجد من الإعانة ما لا يجد لأن لك من

(١) الوسيط مرجع سابق. لأحمد الأمين ص : ١٥ .

الأوقاف ما يكفيك ، ووراءك امتحان يحملك على الاجتهاد ، لأنك إذا سقطت قطعت من الدفتر ، وإذا لم تكن عالما جعلت عسكريا ، وإذا صرت عالما تأخذ من الأوقاف ما يكفيك أنت ومن تمون ، وأما الطالب في أرض شنقيط فبعكس هذا كله ، فإنه إذا لم يتعلم لا يؤخذ للعسكر ، وإذا طلب العلم لا يجد وقفا يتقوت منه، وإذا صار عالما ليس وراءه وقف يضمن له ما هو مضمون لك)[1] .

وقد نص كثير من السلف على أن العلم لا ينال براحة البدن ورغد العيش، وأن الذي يريده لا بد له من طريق الصبر والنصب والمعاناة ، فما إليه بغير مشقة أبدا طريق .

وقال الشافعي رحمه الله : (لا يطلب هذا العلم أحد بالمال وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح) .

تصبر على مر الجفـــا من معلم فإن رســـوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ســـاعة تجرع ذل الجهل طـــول حياته
ومن فاته التعليم وقت شـــبابه فكبر عليـــه أربعـــا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونـــا لا اعتبـــار لذاته

ويتبين من هذا ، أن المحضرة كما تميزت في نتاجها وعطائها العلمي ، فقد انفردت بأسلوبها وطرق عيش طلابها ، فقد كانت حياتها العلمية مملوءة بصور الكد والمعاناة .

ويصدق في طلاب المحاضر قول أحدهم :

تلاميذ شـــتى ألف الدهر بينهم لهم همم قصـــوى أجل من الدهر

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢٠ .

يبيتون لا كنّ لديهم سوى الهوى ولا من سرير غـــــير أرمدة غبر[1]

والأصل أن المحضرة ليس لها موارد ثابتة ، بل ينفق عليها شيخ المحضرة مما ينفق به على أهله ، وقد يصل الأمر أن يشتغل بالتجارة حتى يتمكن من الإنفاق على الطلاب وغالبا إذا لم يستطع الإنفاق عليها يتركها وفي ذلك يقول المختار بن حامدن رحمه الله :

فإن ترني لـــــدى الحانوت أشري به وأبيـــــع من ســـــقط المتاع

فإني سوف أنشـــــد عند بيعي أضاعـــــوني وأي فتـــــى مضاع

ثم إن الطلبة يختلفون فقرا وغنى ، ومن الشائع قولهم الطالب يأتي برزقه ، ولا تستقبل المحضرة الطلبة على أساس المال .

والمورد الثاني بعد شيخ المحضرة هو المجتمع ، الذي يحتضن طلاب العلم ، ويعفيهم من التبعات الاجتماعية ، ويوفر لهم أمنا اجتماعيا وماليا .

ففي بعض المناطق ينقسم الطلاب بين الأسر ، كتجربة أهل ديد[2] .

وللمجتمع عادات رائعة في احتضان الطلبة ، ويتناوب الطلاب على الخدمة والنفقة ، وتحضير الطعام ، ويستفيد الطلاب من مصادر للدخل :

أولها : مدٌّ من كل حمل من أحمال العير التي تمر بالحي .

ثانيا : الوقف ، وهناك أوقاف أكثرها منائح .

ثالثا : عظم الظهر من كل ذبيحة من البقر .

---

(١) الوسيط لأحمد الأمين ص : ٥٢١ ، وقوله (أرمدة غبر) معناه أن هؤلاء لا فراش لهم غير أفرشة بالية لونها كلون الرماد ومكسية بالغبار .

(٢) أسرة شريفة من أهل مولاي الزين لهم محضرة عريقة في قرو-كانو يقسمون كفالة الطلبة على الأسر .

رابعا : عظم العنق من الإبل .

خامسا : شاة العقيقية ، وبعض المحسنين يجعلها بدنة .

سادسا : مناسبة الزواج ، يواسى التلاميذ فيها بشاة أو جزء من الوليمة .

سابعا : الخومسة ، يختار التلاميذ أسرة يعطلون عندها ، ويقوم أهل البيت بإكرامهم .

ثامنا : ثلث أو ربع من ماء البئر ، لهم ولمواشيهم .

تاسعا : مجانية خياطة ملابس الطلبة وخيامهم من قبل النساء .

عاشرا : الغدوة ، وهي وجبات خاصة للطلبة إذا أكملوا متنا كبيرا .

الحادي عشر : إذا تخلفت حلائب الطلاب ، يأذن الطلبة أذانا خاصا بتهدئة الليل ، فترسل إليهم كل أسرة شيئا من اللبن .

الثاني عشر : ما يحصل بواسطة رسالة مفتوحة يحررها الطلبة ويشرحون فيها ظروفهم ويدورون في الحي ، وهذه النماذج تمثل تفاعل المجتمع مع البيئة المحضرية ، هذا التفاعل الذي يغذيه ويعطره كون المجتمع يفسح للطلبة مجال التفكه ، ويغفر لهم الزلات ، ويمنحهم الثقة ورحابة الصدر ، مما يعوضهم شظف العيش والغربة ، وما ذلك إلا لمكانة طلاب العلم في نفوس المجتمع .

وفي بعض المحاضر يتنافس أهل الشيخ في خدمة الطلبة وإكرامهم حتى ينسوا أهلهم . . ! سمعت أن بعض الطلبة الجزائريين من طلاب الشيخ محمد سالم بن عدود رحمه الله قالو : إنهم نسو آباءهم وأمهاتهم ، من شدة الحفاوة والإكرام وحسن التعامل ، وسمعت من غيرهم ممن درس في هذه المحضرة أقوالا مشابهة ، والشيء من معدنه لا ينكر ، وقد وصل إيثار الطلبة في بعض الأحيان إلى التزويج ، فقد كان الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل ، يزوج

طلاب محضرته ويدفع مهورهم .

وقد دفع الطالب أحمد بن محمد راره عشرين بقرة في تزويج أحد طلابه[1] .

والطالب المحضري بدوره يقوم في خدمة الشيخ ، في سقي المواشي ورعيها، وكل ما يحتاجه الشيخ احتسابا .

والطالب المحضري مصدر خدمة للمجتمع ، فهو يقطف الصمغ ، ويحلب لمن لا يجد من يحلب له من الأرامل والضعاف ، ويسلخ الشاء ، ويطبب ويرعى المواشي ، قال الشيخ محمد محمود بن أحمد يورة التندغي واصفاً حالهم :

أشربت أنهار اللغى متشـــبعا بفروعهـــا ومدونا أشـــعارا
ومن المعـــاني والبديـــع مبينا ومهذبـــا من منطـــق أفكارا
ومناظـــرا ومســـاجلا ومربيا ومقارنـــا يســـتلفت الأنظارا
ومزارعا قلب الـــتراب معمرا وتتبـــع الهكتـــار فالهكتارا
ومنميا جـــاب الصحارى كلها وتحمل الأخطـــار فالأخطارا
وطبيب جســـم ماهرا ومبيطرا ومقـــاولا قد قـــارع التجارا
من أنت أنت المحضري أخو التقى والمنفـــق المتواضـــع الصبارا
حمال أثقـــال البـــلاد مهذبا أبناءهـــا المتعفف الـــذكارا[2]

(١) فتح الشكور- ص٦٠ .

(٢) دور المحاضر في موريتانيا ص٢٤٩_٢٥٤و إسهامات المحظرة الشنقيطية في المجال التربوي والاقتصادي الطالب إبراهيم ابن على ولد يركيت متريز في العلوم الشرعية والعربية المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية ص٣٩_٤٣ .

الفصل الثالث

خصائص المنهج المحضري

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : الخاصة الأولى : التدرج المحضري .

المبحث الثاني : الخاصة الثانية : التفرغ للفن الواحد .

المبحث الثالث : الخاصة الثالثة : التفرغ للحفظ .

المبحث الرابع : الخاصة الرابعة : شمول الثقافة المحضرية .

المبحث الأول : الخاصة الأولى : التدرج المحضري .

إن التدرج في المحضرة منهج يستند إلى طريقة تربوية أصيلة ، وهي الطريقة الربانية : قال الله تعالى : ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون[1] .

قال ابن عباس رضي الله عنه : (حكماء فقهاء ويقال الرباني الذي يبدأ الناس بصغار العلم قبل كباره) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : قال الأسماعيلي : نسبة إلى الرب الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل .

وقال ثعلب : قيل للعلماء ربانيون لأنهم يربون العلم أي يقومون به ، وزيدت الألف والنون للمبالغة .

والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة إلى الرب أو إلى التربية والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله ، وبكباره ما دق منها ، وقيل يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده .

قال ابن الأعرابي : لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما عاملا معلما .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله : (الوظيفة الثالثة : أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من العلم الجلي)[2] .

---

(١) آل عمران-٧٩ .

(٢) الإحياء علوم الدين الأبي حامد الغزالي م١ ص٥٦ طبعة دار المعرفة .

والتدرج سنة شرعية وكونية ، (فالتربية هي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجا)[1].

والتدرج في المحضرة ذو جوانب متعددة فهو تدرج في أخذ العلوم بحسب الأهمية وهذا منهج مقرر عند المتقدمين :

فما حوى الغايات في ألف سنة ... شخص فخذ من كل علم أحسنه[2]

وقال الهلالي رحمه الله :

وقدم الأهم إن العلم جم ... والعمر ضيف زار أو طيف ألم

أهمه عقائد ثم فروع ... تصوف وآلة بها الشروع[3]

وقال الإمام العراقي رحمه الله :

وفي الصحيحين ابدأن ثم السنن ... والبيهقي فهمًا وضبطًا ثم ثن

بما اقتضته حاجة من مسند ... أحمد والموطأ الممهد[4]

وقال البدوي المجلسي رحمه الله :

طلبه فريضة وأفرضُه ... علم مهمك به ابدأ تقبضه

فقوته الفقه وملحه الذي ... يصلحه النحو جهوله انبذِ

وأسه إدامه تحقيقه ... سيرة خير واجب تصديقه[5]

---

(١) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور مؤسسة التاريخ الإسلامي بيروت لبنان م ١ .

(٢) منظومة عدة الطلب ص١٧ وأصله امن ألفية السند للزبيدي .

(٣) نصيحة في الاستقامة و التزود للدار الآخرة للعلامة أبي العباس أحمد ابن عبد العزيز الهلالي ص ٣ حققها ونشرها محمد الحسين ابن محنض .

(٤) متن ألفية العراقي التبصرة والتذكرة تحقيق الشيخ الدكتور عبد الله سفيان الحكمى ص ١٠٧ .

(٥) الوسيط ص ٣٥٤-٣٥٥ .

وقال محمد بن أحمد يوره رحمه الله :

هو الجهل جهل الفقه ليس بجائز وجاهل علـــــم النحو ليس بفائز

ولا تتركـــــوا التوحيد ملغى فإنه لخيمة دين المـــــرء إحدى الركائز

وجهل عروض الشعر شر غريزة إذا عددت يومـــــا شرار الغرائز

ولا تجهلوا علم الحســـــاب فإنه قبيح على الفتيـــــان عد العجائز[1]

كما يكون بالبدء بصغار العلم قبل كباره في كل فن من الفنون ، **وللمحضرة ثلاثة مراحل** :

أ – المرحلة الابتدائية :

وتبدأ بتعليم الحروف الأبجدية ، ثم حفظ القرآن الكريم ، ومعرفة رسمه وضبطه وتجويده ، على قراءة الإمام نافع براوييه ورش وقالون ، وأشهر المتون التي تدرس في علم التجويد نظم الدرر اللوامع لابن بري ، وشرحه المسمى بالنجوم الطوالع على الدرر اللوامع للمارغني ، ومقدمة ابن الجزري في علم التجويد .

ب – المرحلة الثانية :

وهي بمثابة التعليم الثانوي ، ويتم فيها (تعليم فرض العين) ، وذلك أن الطفل أو الفتاة عند ما يبلغ سن الرشد أو يقاربها ، يتعين عليه معرفة الأحكام التي هي فرض عين عليه ، فيبدأ بدراسة المتون الأولية في الفقه المالكي كمتن الأخضري وابن عاشر ونحوهما ، بالإضافة إلى دراسة بعض المتون الأولية في بعض العلوم كالآجرومية في النحو ، وبعض دواوين الشعر كالمعلقات ونحوها .

---

(١) ينسب إلى محمد بن أحمد يوره وليس في ديوانه .

ج - المرحلة الثالثة :

هي بمثابة المرحلة الجامعية والدراسات العليا ، وتدرس فيها أمهات الكتب، والتدرج حاضر في كل المراحل .

ففي النحو مثلا يبدؤون بالآجرومية قبل الملحة ، وبالملحة قبل الألفية ، وفي الفقه المالكي يبدؤون بالأخضري قبل ابن عاشر ، وبابن عاشر قبل الرسالة، وبالرسالة قبل خليل ، ويرون أن قفز المراحل مشغلة ، قال عمر ابن عتبة لمعلم ولده : (ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مشغلة للفهم)[1] ، هذا في الغالب ، فقد يبدأ الطالب بالألفية بعد الآجرومية وبخليل بعد ابن عاشر إذا كان من أجاويد الطلبة .

وقد اختلفت طرائق المحضرة في البدء ، فبعض المحاضر يبدأ بالقرآن، وهذا غالب حال أهل الشرق وأهل الوسط ، وبعضهم يبدأ بالعربية كأهل الغرب ، وبعض أهل الشمال يبدأ بالفقه وقد يكون هذا الاختلاف إرثا أندلسيا ومغربيا ، لأن أهل الأندلس كانوا يبدؤون بالعربية ، وأهل المغرب كانوا يبدؤون بالقرآن قبل غيره ، قال ابن العربي رحمه الله : (اعلم أن الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل نقش ، ومائل لكل ما يمال إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، ثم ينبغي أن يقدم إلى المكتب ويشتغل بتعليم القرآن وأحاديث الأنبياء وحكايات الصالحين)[2] .

قال ابن خلدون رحمه الله : (وأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٢٧٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٧٢ العواصم من القواصم .

على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله) وذكر أن أهل إفريقيا والأندلس يخلطون العلوم إلا أن أهل إفريقيا أقرب إلى أهل الأندلس .

ثم إن ابن العربي رحمه الله بعد التجربة ، فضل مذهب أهل الأندلس ، كما ذكر عنه ابن خلدون ، قال : (والذي يجب على الولي في الصبي المسلم أبا كان أو وصيا أو حاضنا أو الإمام ، إذا عقل أن يلقنه الإيمان ، ويعلمه الكتابة والحساب، ويحفظه أشعار العرب العاربة ويعرفه العوامل والإعراب وشيئا من التصريف، ثم يحفظه إذا استقل واشتد في العشر الثاني كتاب الله وهو أمر وسط بيننا وبين أهل المشرق) .

ويقول في موطن آخر : (ويا غفلة أهل بلادنا ، أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره ، يقرأ مالا يفهم ، وينصب في أمر غيره منه أهم) .

وابن خلدون رحمه الله يعتذر لطريقة أهل المغرب ذاكرا أسبابها قال رحمه الله معلقا على كلام ابن العربي رحمه الله : (وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن إيثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ، لأنه مادام في الحجر منقاد للحكم فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة ، فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن ، ولئلا يذهب خِلْوا ، ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق ، ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه)[1] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٧ .

المبحث الثاني : الخاصة الثانية: التفرغ للفن الواحد .

من أنظمة المحضرة الأساسية التي تخالف نظام الجامعات والمدارس العصرية : أن الطالب لا يجمع بين أكثر من فن في آن واحد ، وإنما يشتغل بدراسة فن واحد ، يتفرغ له ويستمر فيه حتى يتقنه ويستوعبه ، ثم ينتقل إلى ما بعده . . وهكذا[1] .

ويرى طلاب المحاضر أن الجمع بين فنين أو فنون في آن واحد من أكبر عوائق التحصيل العلمي المنتج ، وفي ذلك يقول أحدهم :

وإن تـــــرد تحصيل فـــــن تتمه فعن ســـــواه قبـــــل الانتهاء مه

وفي ترادف الفنـــــون المنع جاء إذ توأمان اســـــتبقا لن يخرجا[2]

فهو يشبِّه الجمع بين أكثر من فن ، في كونه مانعا من استيعابها وإتقان أي منها، بالتوأمين اللذين لا سبيل إلى خروجهما دفعة واحدة ، فهذا النظام يساعد على حفظ المتون وإتقانها ، خلافا لما عليه أنظمة المدارس الحديثة ، التي تلزم الطالب بجملة من المواد في فصل واحد ، فيظل ذهنه متشتتا بينها ، ولا يستطيع إتقان أي منها ، وهذا شبيه بقول ابن العربي رحمه الله (ونهي أن يجمع بين فنين ، إلا إن كان الطالب قابلا بجودة الفهم والنشاط)[3] فللطلبة النابهين استثناء في

---

(١) انظر نظام المحاضر في الوسيط ص : ٥١٨ وعلماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب ، ص : ١٦٣ط ١ دار النفائس بيروت ١٣٩٧هـ ، ومحمد الصوفي ص : ٥٣ .

(٢) انظر : حياة محمد الأمين بن داداه : لمحمد بن محمد سالم ص : ١٤ط انواكشوط سنة : ١٩٨٤م .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٥٣٩ .

الجمع لعلو كعبهم وتميزهم .

وبمثل هذه الميزات وهذه المنهجية ، استطاع الشناقطة أن يقيموا نهضة ثقافية نموذجية تحت الخيام وعلى ظهور العيس ، عن طريق تلك الجامعات المتنقلة الفريدة من نوعها (المحاضر) ، وأن يطوعوا من خلالها العلم لظروف الصحراء القاسية ، فجعلوا منها جامعات تسيح في الأرض ، نالت إعجاب الباحثين التربويين[1] ، فقد أشاد كثير منهم بنظام المحاضر ، وأكدوا أن نجاحاته خرجت عن المألوف ، بمن فيهم المستشرقون والفرنسيون المستعمرون ، الذين دهشوا من هذه المحاضر التي استطاعت أن تحمل رسالة الإسلام ولغته إلى أدغال إفريقيا، وأن تحول البُدَاةَ الجُفَاةَ من الأعراب الأميين ، إلى علماء وشعراء هَذَّبَ العلم طباعهم ومشاعرهم ، ونخل صدورهم وصفى قلوبهم ، ومما زاد استغرابهم أن هذه المحضرة لم تقتصر على تخريج أفراد أفذاذ ، وإنما نشرت لواءها ليستظل به الجميع ، فخرجت مجتمعا يتذوق العلم كله ويجله ، وكل فرد منه يأخذ من العلم بنصيب .

ويعتقد بعض الباحثين ، أن المحضرة استطاعت القضاء على الأمية في بلاد شنقيط ، بنسبة (٨٠٪)[2] .

وتذكر بعض المصادر ، أن قبائل الزوايا لا يوجد فيها ذكر ولا أنثى إلا وهو يقرأ ويكتب ، وإن وجد في قبيلة غير ذلك فهو نادر ، بحيث لا يوجد في

---

(١) انظر علماء ومفكرون عرفتهم ص: ١٦٤وتاريخ موريتانيا من حياة العلامة محمد المامي للمرابط بن عبد العزيز ص: ١٧ ط١ انواكشوط سنة: ١٩٨٢م.

(٢) انظر كتاب نماذج من تاريخ أسرة آل حبت١٨٥٠_ ١٩٥٠ انواكشوط ١٩٨٥م ومجلة العربي الكويتية العدد ٨٣ مقال: (ألواح تحت الشجر).

المائة أكثر من واحد ، على تقدير وجوده[1] ، وفي هذا الجو العلمي والوسط الاجتماعي، الذي لا يحترم إلا من كان يشار إليه بالبنان في العلم والحفظ ، تخرج أولئك الجهابذة الحفاظ الموسوعيون الذين بهروا العالم ، وأصبحوا مضرب المثل في غزارة العلم وقوة الحفظ .

(١) انظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد الأمين ص: ٥١٧ مرجع سابق.

المبحث الثالث : الخاصة الثالثة : اعتماد الحفظ .

من المناهج الرائدة في المحضرة ، التي كان لها أثر بارز في بناء الثقافة الإسلامية. . اعتماد حفظ النصوص واستخدام الوسائل المساعدة ك (اللوح) وهو من أعواد الشجر ، ولا يمحى ما فيه إلا بعد حفظه ، وقد تغنى به طلاب المحضرة وجعلوه شغلهم الشاغل ، قال الشيخ سيديَّ الكبير رحمه الله :

فمن كان ذا لـــــوح وهم وطاعة فلا يدن للمتسصبيات اللواعب

فما أفســـــد الألواح والهم والتقى كبيض التراقي مشرفات الحقائب[1]

وقال ابن حنبل رحمه الله :

عم صباحـــــا أفلحت كل فلاح فيك يا لـــــوح لم أطع ألف لاح

أنت يا لـــــوح صاحبي وأنيسي وشـــــفائي من غلتي ولواحي

بـــــك لا بالثرى كلفـــــت قديما ومحيـــــاك لا وجـــــوه الملاح[2]

ومن الوسائل المساعدة :

١ - اللوح .

٢ - طريقة الشيخ التي لا تعد غير المحفوظ علما .

٣ - قلة الكتاب للبعد عن المكتبات ، فالذي يستعير كتابا لابد أن يحفظه .

٤ - ندرة الورق .

---

(١) الوسيط ٢٤٢_٢٤٣ .

(٢) الوسيط ٢١٨ .

٥ – حتمية الاعتماد على الذاكرة للحاجة لذلك .

٦ – البعد عن الملهيات ؛ لأن العلم هو الشغل الشاغل للجميع .

٧ – صفاء الأجواء ، إذ ليس فيها ما يعكر صفو الطالب .

٨ – استخدام الأوقات المناسبة كهدأة الليل ووقت السحر وبعد الفجر .

٩ – التنشئة علي حفظ القرآن وأشعار العرب ، فمن حفظ القرآن سهل عليه ما سواه ، وأشعار العرب تنمي الملكة[١] .

١٠ – الحفظ بشكل مبكر .

١١ – المكابدة والسهر .

١٢ – الجوع .

١٣ – العبادة .

١٤ – التكرار .

١٥ – استخدام المنظومات العلمية في التعلم والتعليم .

١٦ – الطرر والحواشي .

واعتماد هذه الطريقة في الحفظ منهج قديم ، فقد حفظ الله القرآن والسنة بحفظ هذه الأمة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٢] .

وقيل لابن المبارك أما تخشى على العلم أن يجئ المبتدع فيزيد في الحديث ما ليس منه ؟ ، قال : (يعيش لها الجهابذة النقاد)[٣] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) الحجر الآية ٩ .

(٣) التمهيد لابن عبد البر ١/ ٦٠ .

وقد جعل الله أهل العلم من هذه الأمة حملة أمناء لهذا العلم (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله)[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم : (نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا)[2] نهي في البداية عن كتابة غير القرآن ؛ اعتمادا على الحفظ ، وخوفا من أن يختلط بالقرآن ما ليس منه .

وعرف المكثرون من الصحابة الذين كانوا نماذج للحفظ ، قال الشيخ سيدي عبد الله رحمه الله في طلعة الأنوار :

والمكثـــرون بحرهـــم وأنس عائشـــة وجابـــر المقدس
صاحب دوس وكـــذا ابن عمرا رب قنا والمكثريـــن الضررا[3]

وقد اختلفت مراتب الصحابة رضي الله عنهم في الحفظ ، قال مسروق ابن الأجدع : (جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجدتهم كالإخاذ ، فالإخاذة تروي الرجل والإخاذة تروي الرجلين ، والإخاذ لو نزل بهم أهل الأرض لأصدرهم)[4] .

وقال الزهري لمالك رحمهما الله: ما استودعت قلبي شيئا قط فنسيته[5] .

وقصص الأئمة في الحفظ لا تعد كثرة ، وقصة البخاري مع أهل بغداد مشهورة .

ومنـــه قلـــب ســـند لمتن مثـــل امتحانهم إمـــام الفن

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) الترمذي رقم ٢٨٧٠ .
(٣) طلعة الأنوار سيد عبد الله ابن الحاج إبراهيم ص٥ .
(٤) طبقات ابن سعد ٢ _ ٣٤٣ (١٠) ألفية العراقي ص٤٧ .
(٥) حلية الأولياء ٣-٣٦٤ والتمهيد ٦-١١١ .

في مائـــــة لمـــــا أتـــــى بغدادا فردهـــــا وجود الإســـــنادا[1]

وقال منصور الفقيه :

علمي معي حيثما يممت يتبعني صدري وعاء له لا جوف صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق[2]

وأنشد الخليل :

ليس بعلم ما حـــــوى القِمَطْرُ ما العلم إلا مـــــا حواه الصدر[3]

قال الشيخ عبد الله الحكمي حفظه الله :

من منح الحفـــــظ -رزقته - وعا وعاش في أوهامـــــه من ضيعا[4]

فبعـــــد فالعلـــــم إذا لم ينضبط بالحفظ لم ينفـــــع ، ومن مارا غلط

وهاك يـــــا أخي قولا ســـــالفا يا أيهـــــا المضمـــــن الصحائفا

ما قد روى يضـــــارع المصاحفا احفظ وإلا كنت ريحا عاصفا[5]

واعلم بـــــأن العلـــــم بالتعلم والحفظ والإتقـــــان والتفهم[6]

وقال ابن حزم رحمه الله :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري

---

(١) التبصرة والتذكرة للعراقي تحقيق الشيخ الدكتور عبد الله سفيان الحكمي مراجعة وتصحيح العلامة الجليل الشيخ محمد سالم ولد عدود رحمه الله وتلميذه الشيخ محمد الحسن ولد الددو حفظه الله ص٤٧ .

(٢) الشافعي وقيل منصور الفقيه جامع بيان العلم ١١/ ٦٩ .

(٣) انشده الخليل الفقيه والمتفقه م١ ص ٤٩٤ وجامع بيان العلم ج١ ص٦٨ .

(٤) عدة الطلب .

(٥) عدة الطلب ص٢٥. جامع بيان العلم .

(٦) عدة الطلب أرجوزة الآداب من نظم اللؤلؤي ص٢٧.

يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ، ويدفن في قبري[1]

ومن أهم العوامل السابقة ما في المحضرة من جو العبادة والقربة والزلفى، وماله من أثر في تثبيت المعارف وترسيخ الحفظ كما هو معروف ، قال الشافعي رحمه الله :

شـــكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشـــدني إلى تـــرك المعاصي

وقـــال اعلم بـــأن العلم نور ونور الله لا يؤتـــى لعاصي[2]

وقال الشيخ محمد عالي بن عدود رحمه الله :

العلـــم من دون العبـــاده هبا لا يســـتقر فحـــرٍ أن يذهبا

والعلم في التقريب مثل الشجره أما العبـــادة فمثـــل الثمره

ففضلـــه من جهـــة وفضلها من جهـــة ثمـــرة وأصلها[3]

وقال رحمه الله :

يقيمون فرض الخمس عند ندائه نـــداء للأعمى أو نـــداء بلال

وعمارها مـــن كل ضنإ كريمة كريم خلال مـــن كريم خلال

أغر كمصباح الزجـــاج بل انه كمثل تلالي العـــارض المتلالي[4]

وقد ورد عن ابن متالي رحمه الله، أن أسباب الحفظ ثلاثة :

١ - **عادي** وهو التكرار .

---

(١) سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة المجلد الثامن عشر ص ٢٠٥ .

(٢) ديوان الشافعي .

(٣) عدة الطلب صـ ٧٤ .

(٤) للشيخ محمد عالِ ابن عدود رحمه الله، سمعتها من سبطه الشيخ محمد الحسن ابن الددو حفظه الله .

٢ - **طبي** وهو عدم شرب الماء البارد .

٣ - **وشرعي** وهو التقوى[١] .

ولعل بعض الطلبة كان يجمعها ، لقلة توفر الماء البارد غالبا ، والانشغال بالعلم الذي هو من وسائل التقوى ، إضافة إلى التكرار .

ولم تعتن المحضرة بالحفظ المجرد ، بل اعتمدت الطرائق الناجحة لإيصال المعلومات وفهمها بعد حفظها كضرب الأمثال ، والامتحانات الدورية في الرسم والإعراب ونص القرآن ، والسمر العلمي والأدبي ، والمشافهة والسماع لما لهما من أثر بالغ في حفظ العلم وفهمه ، كما استخدموا الألغاز ، والأحاجي ، والتشويق ، وضرب الأمثلة ، والتقييم المستمر ، نظرا لوجود الشيخ بين ظهراني طلابه بشكل مستمر[٢] .

فقد كان يحظيه ابن عبد الودود رحمه الله ، يشبه الجملة الاسمية ودخول النواسخ عليها ، بخيمة تعتمد على ركيزتين ، أمامية وهي المبتدأ ، وخلفية وهي الخبر ، فإذا دخلت الأفعال النواسخ تسقط الخلفية ، وإذا دخلت الحروف النواسخ تسقط الأمامية (وإذا دخلت أفعال القلوب سقطتا معا ، وكان يقرب المعاني كما قال ممّوُ رحمه الله[٣] :

وكان في إقرائـــه يصـــوغ عبـــارة لفهمهم تســـوغ
يريهـــم المعني أخـــا الطموس مـــبرزا في صورة المحســـوس

---

(١) مقابلة مع القاضي أحمد شيخنا بن أمات نقلا عن ابن الصفي رحمه الله في شهر ٩/ ١٤٣٢هـ.

(٢) مجلة التربية العدد الخامسة ٢٠٠٦ص٢٦مجلة محكمة .

(٣) ممو ولد عبد الحميد الجكني العالم الأديب والنحوي الأريب صاحب المنظومات النحوية المتميزة من طلاب يحظيه ولد عبد الودود المتميزين .

يـــــضرب الأمثال التـــــي تفهم حتـــــى كأنـــــه لها مجســـــم

ويصف بعضهم طريقة المختار بن المحبوب فيقول :

(كان أسلوبه البديع يجذب المريد إليه ، وكأنه يتتبع طيات قلبه ليبسطها أمام المعارف) .

وكان يحظيه رحمه الله يمازح ويؤانس طلابه يقول ممُّو رحمه الله :

كان لطالـــــب العلـــــوم يرحم لا ســـــيما إذا اعتراه ســـــقم

يؤنســـــه بعرك أذن أو شـــــعر وقـــــد يضمـــــه إليـــــه فيسر

ولا يصـــــون كتبه عـــــن طالب وليس دون بابـــــه من حاجب[1]

وقد ضربت المحضرة الموريتانية أروع الأمثلة في الحفظ ، وقوة الذاكرة ، وغزارة العلم ، وحضور البديهة ، ويكفي أنها خرجت مثل العلامة : محمد محمود بن التلاميذ التركزي ، ومحمد الأمين الحسني الزبيري ، ومحمد الأمين الشنقيطي صاحب الأضواء ، والشيخ محمد سالم بن عدود ، وأحمد بن الأمين الذي أملى من ذاكرته ٤٥٠٠ بيت ، وكان كثير من شباب الزوايا يحفظون دواوين الشعر الجاهلي، وألفية ابن مالك ، ومختصر خليل ، ومتونا أخرى قبل البلوغ .

وكان الغلام المجلسي يحفظ المدونة قبل البلوغ، وكان في تنيكي٣٠٠ فتاة تحفظ الموطأ . وكانت والدة الشيخ محمد سالم بن عدود تحفظ القاموس ، وقد حفظ محمد الأمين بن الددو القاموس إلى حرف الراء ، وكان محمد عبد الله بن احمذيه يقول (ثلاث لا يعجز الرجل عنها الطهارة المائية ، وحفظ النص من قراءة واحدة ، وقول الحق في محله . .) .

---

(١) مجلة التعليم تربوية ثقافية تصدر عن المعهد التربوي الوطني العدد ٢٣ الموافق ٢٠٠٢ (آثار التشويق في الدرس المحضري محمذا ابن احمد المحبوب) ص ٢٦ _ ٣٨ .

وكان سيدي أحمد الولي بن أبي بكر قاضي ولاته يحفظ مقامات الحريري ، وخرج الطالب أحمد بن محمد بن الحاج الطيب الجماني من تيشيت وهو يحفظ ثلاثة عشر متنا ، وكان محمد محمود بن احمذيه ، يحفظ مقامات الحريري ، والمستطرف ، والكامل للمبرد ، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، وديوان المتنبي ، وديوان أبي تمام ، والبحتري هذا خارج المنهج التقليدي .

وكان الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ أحمد بن سليمان ، المتوفى سنة ١٣٩٧هـ ، يحفظ الإتقان في علوم القرآن ، وفتح الباري . .

ويروى عن سيدي محمد بن سيدي عبد الله أنه قال : إن علوم المذاهب الأربعة لو رمي بجميع مراجعها في البحر ، لتمكنت أنا وتلميذي ألفغ الديماني من إعادتها دون زيد أو نقص ، هو يحمل المتون وأنا أمسك الشروح ، ويروى كذلك أن محمد بن الطلبة كان يحفظ التسهيل لابن مالك ، وكذلك الشيخ سيديا الكبير وهو آخر من كان يحفظه في تلك البلاد ، كما روي عن الشيخ محمد سالم ولد عدود رحمه الله[1] .

وأما الذين برزوا في سرعة التحصيل الدراسي وهم حفاظ أيضا ، فمنهم الشيخ سيدي المختار الكنتي[2] كان يكتب سبعة ألواح كل لوح في فن قال : (فأحفظ الألواح كلها وأفسر مع كل أهل فن الدروس الموافقة لدرسي ، وكان درسي من مختصر خليل قفين أو ثلاثا أو أربعة ، ولم أختم كتابا قط درسا ، بل كلما

---

(١) نقلته عن الشيخ محمد محمود بن جلال في الكويت بتاريخ ٧/ ٤/ ١٤٣٣هـ .

(٢) هو الشيخ سيدي المختار الكنتي كان من أفراد عصره علما وصلاحا ولمن نظر في كتبه تبين له فضله فقد كان عالما جليلا جامعا وكان من أكابر شيوخ الطريقة القادرية وكانت له كرامات ظاهرة ومؤلفات وافرة الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٣٦١ بتصرف وزيادة بسيطين .

شطرت الكتاب أو ثلثته عرفت باقيه .

وكان درسه من الخلاصة أربعين بيتا بطررها وشواهدها .

وكان درس الشيخ ماء العينين[1] من مختصر خليل أربعين قفا .

وقد تبحر محمذن فال بن متالى في علوم المحضرة في فترة وجيزة ، بما يشبه خرق العادة[2] ، وكان الشيخ سيدي عمر بن سيدي أحمد البكاي يحفظ ألف مجلد قبل البلوغ[3] .

وكان العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم من أعلام الحفظ والفهم ، وقد حاز المذاهب الأربعة ، قال فيه باب بن أحمد بيبَ :

قد كاد أن يوصـــف بالترجيح بفهمـــه ونقلـــه الصحيح

وكان في الحديـــث لا يبـــارى كأنما نشـــأ في بخـــارى[4]

وكان بعض الطلبة يحفظ من حكاية واحدة كالطالب أحمد بن محمد راره التنواجيوي[5].

وقال طه حسين متحدثا عن ابن التلاميذ التركزي (وكان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون أنهم لم يرو ضريبا للشيخ الشنقيطي ، في حفظ اللغة ، ورواية

---

(١) هذا لقب اشتهر به واسمه مصطفى بن الشيخ محمد فاضل القلقمي العلامة الوحيد له معرفة بعلوم الشرائع مثل الفقه والحديث والنحو ونحو ذلك كان فاضلا كريما لا يوجد أحسن منه أخلاقا وكان من المجاهدين ومن القيادات الاجتماعية الفاعلية الوسيط مرجع سابق ص ٣٦٥ وسنتحدث عنه في أكثر من موضع فيا سيأتي من الرسالة .

(٢) المنارة والرباط ص٢٣٣ .

(٣) أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق _ص٣٣٠ .

(٤) الوسيط ص٤٠ .

(٥) فتح الشكور _ص٦٠ .

الحديث سندا ومتنا ، عن ظهر قلب)[1] .

(١) المجموعة الكاملة _ج _ص٣٤٣.

المبحث الرابع : الخاصة الرابعة : شمول الثقافة المحضرية .

من الإرث الذي ورثته الثقافة المحضرية ، ظاهرة الثقافة العالمة التي أنتجت العالم الموسوعي[1] الذي حفظ النصوص وفهمها ، وتحولت عنده إلى ملكة ، يذكرك بما يحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وتجد هذا واضحا جليا في صورة شيخ المحضرة الوحيد الذي يدرس عشرات المتون في مختلف المجالات من غير عناء في الاستحضار والتحضير ، وتجده في مجالس السمر العادي الذي يبعد أحيانا عن أجواء الدراسة الرسمية ، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا رحمه الله :

وكم سـامرت سـمارا فتوا ... إلى المجد انتموا مـن محتدين
حووا أدبا على حسـب فداسوا ... أديـم الفرقديـن بأخمصين
أذاكـر جمعهـم ويذاكروني ... بـكل تخالـف في مذهبين
كخلف الليـث والنعمان طورا ... وخلف الأشـعري مع الجويني
وأوراد الجنيـد وفرقتيـه ... إذا وردوا شراب المشربـين
وأقـوال الخليل وسـيبويه ... وأهـلي كوفة والأخفشـين
نوضح حيث تلتبـس المعاني ... دقيـق الفرق بـين المعنيين
ونحو الستة الشـعراء ننحوا ... ونحـو مهلهل ومرقشـين

(١) قال صاحب فتح الشكور في ترجمة الفقيه سيد محمد ابن إيجل الزيدي (كان رحمه الله عالما فقيها لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطقيا شاعرا ناثرا متقنا متفننا حسن الخط بديعه) ص١٠٩.

وشـــــعر الأعشـــــيين إذا أردنا وإن شـــــئنا فشـــــعر الأعميين

ونذهـــــب تـــــارة لأبي نواس ونذهـــــب تارة لأبي الحســـــين

وأحيانـــــا نميل لذكـــــر دارا وكسرى الفارسي وذي رعين[1]

ويقول العم بن أحمد فال العلوي رحمه الله :

فبينا ننشـــــد الأشـــــعار حينا ونأخـــــذ في المقايـــــس والمباني

وننحو النحـــــو والتصريف حينا وأطـــــوارا نميـــــل إلى البيان[2]

ومع أن ظاهرة التخصص لا مناص منها ، إلا أن الموسوعية بارزة ، فالعالم روضة مليئة بالأزاهير والرياحين .

ومما يدل على موسوعية العالم المحضري ، ما تجده من التأليف في جميع المجالات .

فقد ألف محمد يحيى الولاتي زهاء مائة مصنف في جميع الفنون ، وكذلك الشيخ محمد المامي، وابن سليمة الولاتي ، وغيرهم .

ومن مظاهر هذه الثقافة استقصاء ما كتب في كل مجال ، كما نجده في (بو طلحية) حيث استقصى النابغة الغلاوي فيه كتب المذهب ، تقويما ، وترشيحا ، ونقدا .

ومن مظاهرها كذلك ، شمول الدراسة في التخصص الواحد ، فمثلاً : في مفردات العربية يدرس الطالب المقصور والممدود في كتاب (تحفة المودود) ، ويدرس المقصورة (في مقصورة بن دريد) والمثلث في (إعلام الأعلام) مثلا، ويدرس الديوان الستي ، وديوان غيلان ، والقاموس ، واللسان وهذا كله في

(١) الوسيط ص٢٥٦_٢٥٧ .

(٢) الوسيط ص٨٥_٨٦ .

المفردات فحسب .

ومن مظاهر الثقافة العالمة كثرة الإحالات العلمية في منظوماتهم ومؤلفاتهم، فما من أحد يقرأ لعالم مبرز ، إلا وجد المتعة ، والثقافة القرآنية ، والسنية ، واللغوية، والأدبية ، والفقهية ، والأصولية . . .

ومن يقرأ منظومات ابن حامدن ، ومحمد مولود[1] والشيخ العلامة محمد سالم بن عدود ، والبدوي[2] رحمهم الله جميعا يجد مما ذكرنا عجبا ، والتكميل والموثق وعمود النسب خير شاهد ، فقد كانت إبل علمهم عقرا .

فدونكم إبل علم لا تلد تحمل أثقالكم إلى بلد
ولم يكن مصريكم والتونسي بالغه إلا بشق الأنفس
إن لم يكن شنقيط فيها زمزم فلهم في العلم أصل أقدم[3]

ويمكن أن يقال إنهم استوعبوا ما في محيطهم من العلوم على الأقل .

وقد تجاوز بعضهم مرحلة الاستيعاب ، إلى التجديد والاجتهاد ، كالشيخ محمد المامي رحمه الله على سبيل المثال .

---

(١) هو محمد مولود ابن أحمد فال إليعقوبي المتوفي سنة ١٣٢٣هـ كان من دعائم المدرسة اليعقوبية التي مزجت بين الفقه والأدب واللغة واشتهر بكتابه الفقهي (الكفاف) وهو يدل علي سعة اطلاعه وطول باعه وله كتب مشهورة ومنظومات وافرة في الرقائق والزهد وغير ذلك وكان نحويا ماهرا اهتم بالشواهد القرآنية والحديثة تاريخ النحو العربي ص ٦٥٤-٦٥٥ .

(٢) هو أحمد البدوي المجلسي العالم الكبير والنسابة الشهير وهو الذي أحيا أنساب العرب بنظمه عمود النسب وقد أجاد فيه ومن تأمل نظمه علم سعة اطلاعه واقتداره في ذلك الفن، ونظم أيضا غزوات النبي صلي الله عليه وسلم نظما جيدا يدل على تبحره في السيرة الوسيط ص ٣٥١-٣٥٢ .

(٣) نظم خليل للشيخ محمد المامي إشراف العلامة يابه بن محمادي عميد الزاوية طبعة فضالة المغرب ص٤٩٠ .

ومن الأدلة على رسوخ هذه الثقافة ، أنهم نظموا في كل فن ، حتى في الطب والرياضيات والجغرافيا والسياقة ، إضافة إلى المنظومات في كافة العلوم الشرعية، والتأليف ، فصاروا مضرب مثل . . يقول ابن أحمد يوره في العالم أمين بن الفراء[1]:

أيا من حكـــــى الفرا وأصبح أبلغا وفاق الإمام المـــــازري وأصبغا

والجمع كما أنه هو منهج السلف الأولين ، فهو ملازم للعلم ؛ لأن العلوم مدارها الكتاب والسنة ، وشرحهما وآلتهما ، ولذلك كان كل علم يضم جملة علوم .

ومن أسباب هذه الثقافة : سعة الدراسة ومصادر الثقافة ، ومن نظر إلى المقررات المحضرية لحظ الشمول في جميع المجالات وسنحاول التمثيل لهذا الشمول من خلال ذكر بعض ما يدرس في المجالات المختلفة :

أولا : في مجال العقيدة :

١ – مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني .

٢ – إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة لأحمد المقري التلمساني .

٣ – ومؤلفات السنوسي في العقيدة ، كالسنوسية الصغرى المعروفة بأم البراهين ، والسنوسية الكبرى المسماة عقيدة أهل التوحيد .

٤ – وسيلة السعادة للمختار بن بونا الجكني الشنقطي .

٥ – الواضح المبين لعبد القادر بن محمد سالم المجلسي الشنقيطي .

ثانيا: التفسير :

وأما في مجال التفسير فإن من أهم التفاسير التي يعتمد عليها طلاب المحاضر

---

(١) محمد بن أحمد يوره في ابن الفراء ، في ديوانه المخطوط ص٢٢ .

في دراستهم : تفسير ابن جرير الطبري ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير الجلالين ، وتفسير ابن جزي المسمى : (التسهيل في علوم التنزيل) .

ثالثا : الحديث :

وفي مادة الحديث يهتمون بدراسة موطأ الإمام مالك وصحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم ، وكتب السنن الأربع .

رابعا : الفقه :

ويدرسون في مادة الفقه رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحاق ، وتحفة الحكام لابن عاصم ، والكفاف لمحمد مولود بن أحمد فال الشنقيطي ، وأسهل المسالك إلى معرفة مذهب الإمام مالك .

خامسا : أصول الفقه :

ومما يدرسون فيها : ورقات إمام الحرمين ، وجمع الجوامع لتاج الدين عبد الوهاب السبكي ، ومراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي، ومرتقى الوصول لابن عاصم والكوكب الساطع للسيوطي .

سادسا : السيرة والأنساب :

ومن أشهر ما يدرسون فيها : قرة الأبصار لعبد العزيز اللمطي ، ونظم الغزوات ، وعمود النسب الشريف لأحمد البدوي ، ونظم السرايا والبعث لغالي بن المختار ونظم حوادث السنين لببها بن العاقل .

سابعا: النحو والصرف :

ومن أهم ما يدرسون في هذا الفن بعد الآجرومية ، ملحة الإعراب للحريري ، وألفية ابن مالك ، ولامية الأفعال لابن مالك ، والكافية لابن مالك،

واحمرار بن بونا على الألفية ، واحمرار الحسن بن زين على اللامية .

ثامنا : اللغة والأدب :

ومما يدرسون في ذلك المعلقات السبع ، ودواوين الشعراء الستة الجاهليين ، ولامية العرب للشنفرى ، وقصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير ، وديوان غيلان ذي الرمة ، وديوان المعري ، ومثلث قطرب ، ومثلث ابن مالك ، والمقصور والممدود لابن مالك ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي وهو كتاب مطالعة لا كتاب حفظ .

تاسعا : العروض :

وفي علم العروض كتاب الوافي ، والخزرجية ، ونظم بن عبد أم ، ونظم يحيى بن أحمد الشنقيطي ، ومجدد القوافي لسيدي محمد بن الحاج إبراهيم .

عاشرا : البلاغة :

ومما يدرسون فيها : الجوهر المكنون للأخضري ، وألفية السيوطي في البلاغة المسماة عقود الجمان ، ونور الأقاح لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي .

الحادي عشر : المنطق :

ومما يدرسون فيه مختصر السنوسي ، والسلم للأخضري ، وقواعد المنطق للمعيلي[1] .

---

(١) راجع في مناهج المحاضر ومراحل الدراسة فيها: المحاضر الموريتانية لمحمد الصوفي ص: ٨٣-٨٤ والخليل النحوي ص : ٢١٢-٢١٧ وسميرة صقر ص : ١٦-١٧ مراجع سابقة .

ويرى بعض الكتاب أن المرحلة الابتدائية الأولى التي ذكرناها تعتبر تمهيدا لدخول المحاضر وليست داخلة في اسم التعليم المحضري ، الخليل النحوي ص : ١٦٥ .

وهناك متون كثيرة أخرى في هذه الفنون المذكورة لم نذكرها ، ومتون في فنون أخرى ، لم نتطرق لذكرها أصلا رغبة في الاختصار ، كما أن هذه المتون المذكورة يتغير الترتيب فيها من منطقة إلى منطقة ، ومن محضرة إلى محضرة ، بل ومن طالب إلى طالب ، حسب ميول الطالب ومستواه العلمي .

وبهذا المنهج المتسم بالحرية والمرونة ، المدفوع من المحيط الاجتماعي ، استطاعت المحضرة أن تخرج أجيالا من العلماء الحفاظ ، الذين يحملون معهم علمهم في الحل والترحال ، وكانت صدورهم خزائن لكل ما طالعوا أو درسوا، وبذلك اتسموا بالموسوعية ، ولم يقتصروا على فن دون غيره ، فقد ذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي طرفا من محفوظات والده فعد منها:

(مختصر خليل ، ونظم ابن عاصم ، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وحدود ابن عرفة في الفقه ، وألفية ابن مالك في النحو ، والفريدة للسيوطي في النحو ، وألفية السيوطي عقود الجمان في البديع والبيان والمعاني ، وكتاب المنجور على قواعد الزقاق في القواعد ، وورقات إمام الحرمين ، وجمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه ، والصحاح الستة : البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي وأبو داوود والنسائي في الحديث ، وتفسير ابن عطية[1]) .

ثم إن محفوظات الشيخ ومعارفه ليست محصورة فيما ذكر ، بل هي أكثر من ذلك بكثير وهو ما ذكره الباحثون ومنهم الخليل النحوي في المنارة والرباط ، وفي العادة أن الطالب يتخرج من المحضرة وقد حفظ متونا كثيرة في فنون مختلفة ، وأخذ من كل فن بنصيب كبير ، ومن ليس كذلك لا يعتبر خريج المحاضر ، ولا يأخذ اللقب العلمي الذي يعطيه المجتمع ، لمن كانت له مكانة علمية مرموقة .

(١) انظر : كنت الشرقيون ، لبول مارتي ص : ٤٧-٤٨ ، ومحمد المختار بن اباه ص : ٢٦ ، والخليل النحوي ص : ٢١٢ .

وتختلف المناهج باختلاف أحوال المشايخ والمحاضر .

وقد أفادت المحضرة الموريتانية من مشارب مختلفة .

فظهر فيها الرافد الأندلسي ككتب ابن عاصم ، وابن عطية ، وابن العربي ، والقرطبي ، والباجي ، وابن مالك ، وشرح الأعلم للديوان الستي ، وكتب أبي حيان .

وعلوم القرآن أندلسية ككتب الداني ، والشاطبي .

وعلوم الحديث : كشروح ابن عبد البر ، وشرح الباجي للموطأ .

والرافد المغربي ككتاب الدرر اللوامع لابن بري ونظم ابن عاشر ، ونظم الأخضري الجزائري ، ونظم ابن آجروم ، ورسالة ابن أبي زيد .

والرافد المصري كمختصر خليل ابن إسحاق المصري وشراحه كالخرشي، وعبد الباقي ، والدرديري والأجهوري ، والأشموني ومحشيهم ، وابن هشام .

أما الرافد الأول فهو مدني حجازي ، ومنه مذهب مالك جملة ، وقراءة نافع، ومع أن المتن المعتمد هو مختصر خليل ، إلا أن أربعة ممن اعتمد عليهم أندلسيون ، هم المازري ، وابن رشد، واللخمي ، وابن يونس .

وقد تميز من بين هذه الروافد ابن رشد وذلك بتوفر كتبه ، كالبيان والتحصيل والمقدمات ، فاقتناها الناس وأفادوا منها . ومن المأثور في المحضرة أن الأندلس قامت بقارئها وفقيهها ومحدثها ، ويعنون بالقارئ الداني ، وبالمحدث ابن عبد البر، وبالفقيه أبا الوليد الباجي ، ويعتبرون أن الباجي قد انتصر في معركته مع الظاهرية ، ومما حبب إليهم ابن عبد البر عنايته بالسيرة النبوية ، والسنة ، والأدب فهو أديب ، سيري ، محدث ، فقيه .

وقد رد باب بن أحمد بيبه رحمه الله على بيتي ابن عبد البر :

تذكرت من يبكـــــي علي مداوما فلم أر غير العلـــــم بالآي والأثر

وعلم الأبي قرنـــــا فقرنا وعلم ما له اختلفوا ما الرأي فيه وما النظر

بقوله :

بلى قد بكتك الناس شرقا ومغربا وقد حق أن يُبكى عليك أبا عمر

فأنت الذي استذكرت كل خبيئة وأبديت من علم الشريعة ما بهر

ومهدت للقـــــاري موطأ مالك ولـــــولاه لم يبـــــسر لطالبه ثمر

وأنت بالاستيعاب تستوعب العلا وكافيـــــك كاف للتفقه والنظر

جزاك إله العـــــرش خير جزائه وأسقى ثرى قبر بشاطبة المطر[1]

وقد تعددت مشارب المحضرة من الناحية الفكرية فعرفت ثلاثة اتجاهات :

أولا : التيار السلفي . .

الذي تزعمه محمذا بن حب الله اليعقوبي المعروف بالمجيدري المتوفي ١٢٠٣هـ ١٧٨٩م ، وهو تيار يتمسك بنصوص الكتاب والسنة في ظواهرها ، ويعادي علم الكلام والمنطق الأرسطي ، الذين تقوم عليهما الأشعرية السنوسية، والمجيدري كان تلميذا لابن بونه قبل أن يختلف معه ويدخل معه في مساجلات علمية أثرت المحضرة واشتغل طلابها زمنا بهذه المساجلات[2] .

ثانيا : مدرسة المعقولات الأشعرية . .

نعني بها المدرسة التي تقوم بنيتها على علم الكلام الأشعري ، والمنطق

---

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص : ٢٦ والمنارة والرباط ص١٨٧ .

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص : ٢١٤-٢١٥ .

الأرسطي ، وأصول الفقه ، والنحو والبلاغة ، وقد حمل لواء هذه المدرسة أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر المختار بن بونا الجكني المتوفى ١٢٢٠هـ ١٨٠٤م .

ثالثا : التصوف الطرقي . .

وقد نهض نهضته الكبرى في أواخر القرن الثاني عشر ، على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي رحمه الله والشيخ محمد فاضل القلقمي وغيرهم .

التأليف:

ومن مظاهر الشمول في الثقافة انتشار المؤلفات والعلماء ، فقد أنتجت الثقافة الشنقيطية كبريات المدارس ، وأعلام العلماء ، وأمهات المؤلفات ، فقد ظهرت إلى جانب التدريس حركة تأليف نشطة ، فكان كل عالم يضع لتلاميذه شروحا على المتون القديمة ، أو يستبدل بها متونا مدرسية جديدة ، فضلا عمن جمعت فتاويهم كتبا مستقلة وهم يعدون بالعشرات .

وقد أنتجت المحضرة آلاف المخطوطات ، ويكفي النظر للموسوعة البيبليوغرافية المؤقتة ، لتصور هذا الكم الضخم من المؤلفات ، وقد كتبها قوم بداة ، ينتجعون الغيث ، ويرتقبون النهب .

وقد شمل التأليف مجالات متعددة ، شملت تفاسير القرآن حيث وصلت أحد عشر تفسيرا منها مراقي الأواه لابن أحمذي ، وتفسير القرآن العظيم للشيخ محمد المامي ، والذهب الإبريز للشيخ سيد المختار الكنتي .

وفي مجال الحديث النهر الجاري على صحيح البخاري ، لمحمد ابن محمد سالم ، وشرح البخاري لمحمد الخضر بن مايابا ، وموطأ الموطأ لمحمد يحيى ابن سليمة الولاتي كتاب زاد المسلم وشرحه .

وقد كان العلامة المجتهد باب بن الشيخ سيديا ممن أحيا السنة ونافح عنها ، وقد ألف كتاب إرشاد المقلدين ، ونبه على اتباع السنة واجتناب البدعة .

وكان من رواد المدرسة الأصولية العلامة محمد بن سليمة الولاتي ، والشيخ محمد المامي الذي دعا إلى فتح باب الاجتهاد في كتابه (البادية) .

وأما مدرسة السيرة النبوية فمن أقطابها العلامة محمذا فال بن متالي ، وأحمد البدوي صاحب كتاب عمود النسب ، والغزوات ، ومحمذ فال ابن أحمد ابن العاقل الملقب (ببها) وغالي بن المختار فال .

وأما النحو فمن أشهر أصحابه المختار ابن بونا ، والحسن ابن زين وعبد الودود .

كما ألف في مصطلح الحديث شرح ألفية العراقي لابن أبي مدين ، وطلعة الأنوار لسيدي عبد الله ، وفي البلاغة طرة محنض باب على عقود الجمان ، وكتاب نور الأقاح وفي الفقه الميسر لمحنض باب وكفاف المبتدي لمحمد مولود وكتبه الكثيرة الأخرى .

وممن اهتم بالتأليف في الإصلاح وإنكار المنكر المولود بن اغشممت ، والشيخ سيدي المختار الكنتي .

وقد اتجه بعضهم إلى إصلاح التصوف وإنكار البدع فيه كالشيخ التراد بن العباس[1] ، رحمه الله ولم تكن هذه الحركة الفكرية تقليدا محضا ، بل كان فيها من حرية البحث واختلاف الآراء ما يلفت الانتباه .

ولم يختلف الشناقطة في العقيدة وحدها ، بل اختلفوا في الفقه ، واللغة ،

---

(١) المحاضر الموريتانة وآثارها التربوية ص٧٩-٩٢ .

ودار بينهم النقاش والسجال[1] ، حتى وصلوا إلى مسائل نظرية طريفة ، كقضية الاجتهاد في مجتمع بدوي يتعامل مع تراث فقهي ألف في الحضر ، فكأنهم كانوا يعون خصوصيتهم التاريخية ، باعتبارهم أول مجتمع بدوي مثقف ثقافة عالمة ، وخال من سلطة سياسية مركزية ، بتاريخ الإسلام كله[2] .

وقد حافظت المحضرة على توريث ثقافتها جيلا بعد جيل ، فحصل التسلسل العلمي من غير انقطاع ، فورثَ كلَّ شيخ أبناؤُه أو طلابُه .

ولم تختصر على الرجال فحسب ، بل كان للنساء دور بارز في بعض المحاضر ، فقد كانت لاله عيش بنت الأزرق والدة الشيخ سيد محمد ابن الشيخ سيد المختار الكنتي تدرس مختصر خليل إلى جانب الشيخ سيد المختار ، ومن العالمات العالمة المتكلمة خديجة بنت العاقل ، والعالمة هند بنت محمد سالم ، وقد اشتهرت بتدريس الرجال ، وكانت تجعل بين ركائز الخيمة سرادقا وتدرس طلابها من ورائه ، وإذا سئل زوجها العالم (أبوه) عن نازلة في المسجد يقول انتظروني حتى أرجع إلى البيت إشارة إليها .

ومن العالمات أم الخير بنت أحمد المختار ، التي نظمت ما نثره عياض في (الشفاء) وشارحه (الشهاب الخفاجي) في معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وقد بلغت منّ بنت أحمد بن خليفه مرتبة القضاء ، وكانت صفية بنت المختار ، وخديجة بنت المختار وميمونة بنت الشيخ الحضرمي ، وخديجة بنت

---

(١) من ذلك نقد السالك ابن محمد بن الحسن الحاجي الوداني على الولي الكامل والعالم الرباني سيد محمد بن سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم حيث استدرك عليه ثلاثمائة مسألة في كتابه عروس الأفراح في علم البيان وسمع بذلك فسلمه لسعة باله وكان السالك لا يدرس غير ذلك الكتاب لإعجابه به مجموعة مؤلفات محمد المامي ص البادية ٤٣٦.

(٢) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري ص : ١٠٨-١١٣ بتصرف .

محمد الإمام ، وخديجة بنت البيضاوي ، عالمات مشهورات مرموقات[1] .

وقد استطاعت المحضرة أن تؤلف نسيجا متماسكا ، تنتقل فيه المعلومات والكتب ، وتتبادل فيه الرسائل والفتاوي ، ويرحل الطلاب بين المشايخ من أقصى الصحراء الشنقيطية إلى أقصاها ، مما جعل الطالب المحضري يعلن انتمائه إلى وحدة ثقافية متميزة ، موحدة فكريا رغم تفككها السياسي قبل الاستقلال[2].

(١) المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية ٩٧-٩٩ .

(٢) الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر ص ١٠٨.

الفصل الرابع

المناهج المحضرية تقييم ومقارنة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فضائل المنهج المحضري.

المبحث الثاني : نواقص المناهج التربوية للمحضرة.

المبحث الثالث : بين المحضرة والمدرسة.

المبحث الأول: فضائل المنهج المحضري .

إن المنهج المحضري قائم على جملة من المبادئ ، ظلت تحكم علاقة الشيخ بالتلميذ ، وتوجه مسار العملية برمتها .

وقد صممت هذه المبادئ لتكون خير معين للطالب على بناء ثقافة علمية رصينة ، وربما شذ عنها العباقرة أو الأغبياء ، وسنعرض في هذا المقام لأربع من فضائل هذا المنهج التربوي ، يبدو لنا أنها أسهمت في تكوين الإنسان الموريتاني ، وهيأته لتقبل العلم ، ومهدت أمامه سبل الفهم والاستيعاب وهي[1] :

١ - التدرج في اكتساب العلوم :

إن التدرج في اكتساب العلوم سنة وطريقة ربانية كما تقدم وفي هذا الإطار عمل أصحاب المحاضر على التزام التسلسل المنطقي ، والتدرج المطلوب في التدريس ، وذلك مراعاة لنمو الطالب العقلي والجسمي ، فكانوا في دراسة الفقه مثلاً : ينطلقون من مختصر الأخضري ، ليمروا على منظومة ابن عاشر ، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ، منتهين إلى مختصر خليل وشروحه . وتجسيدا لهذا المبدأ التربوي ، نقرأ رجزا لبعض علماء القوم يقول فيه :

علامة الجهل بهذا الجيل ... تترك الرسالة إلى خليل

وترك الأخضري على بن عاشر ... وترك ذين للرسالة احذر

وترك الآجروم للألفية ... وترك الألفية للكافية

---

(١) مجلة التعليم مجلة تربوية ثقافية تصدر عن المعهد التربوي الوطني العدد ٣٤ سنة ٢٨-١٤٢٤هـ ص٩٨ -١٠٩ مقال لمحمذا ابن أحمد ابن المحبوب .

إن خليـــــلا صار مثل الشـــــم يشـــــمه كل قليـــــل الفهم

وهو بهذا يعتب على الطلبة الذين يهتمون بمختصر خليل على حساب رسالة ابن أبي زيد ، مؤكدا أن ما يقومون به يعتبر تنكيسا مخلا للعملية التربوية، فهم يقدمون ما رتبته التأخير ، والذي يعكس الترتيب السابق يكون قد أخل بالمنهج وخرق العادة ، ليصبح في نظر النظام آية البلادة وعنوان الجهل .

وفي هذا السياق ينصح شيوخ المحاضر الطلاب بالتفرغ للمتن الواحد حتى يستكملوه ، فليس للتلميذ أن يجمع مع المتن غيره ، ولا يصرف عنه بصره قبل أن يستوفي دراسته .

فهم يرون أن ترادف الفنون يورث الحرمان ، ويفضي إلى الخلط والارتباك ، وربما حد من قدرة الطالب على الاستيعاب ، فيبقى مبدد الجهد ، متنازعا بين عدة متون تتجاذبه ، فلا يكاد يتقن منها واحدا .

لذلك يشبه أشياخ المحضرة ترادف الفنون وازدحامها على الذهن بالتوأمين، لا سبيل إلى خروجهما إلا بتفاوت .

وتكميلا لهذا المبدأ ، دعت المحاضر إلى تحديد الدرس اليومي وتقليصه ، حتى يكون في متناول الطلاب متدخلة في كبريات المتون لتوزيعها إلى حصص دراسية متمايزة ، حذرت الطلبة من تجاوزها، فقسمت مختصر خليل مثلاً : إلى وحدات دراسية ، تشكل الواحدة منها أكبر درس يمكن للطالب أن يستوعبه في اليوم الواحد ، وسموا هذه الوحدات « أقفافا » وواحدها « قف » ، وهو في الأصل فعل أمر ، غير أنه تحول إلى الاسمية بفعل التداول والاستعمال ، مع احتفاظه بدلالة الفرض والالتزام ، ذلك أن القوم كانوا يكتبون عند نهاية كل درس كلمة « قف » ، فوضعوا بذلك معالم في طريق هذا المختصر الفقهي، ونظموا إشارات

المرور لكل من يروم التجول داخل أروقته ، وبهذه الطريقة التدريجية ، والمنهج التصاعدي ، استطاع القوم أن يوصلوا المعارف المحضرية إلى أبنائهم بسهولة .

٢ - تثبيت المعارف وترسيخها :

ونقصد به جهود القوم ، الرامية إلى تكرار المعارف ، حتى تنطبع في الذاكرة، وتحصل في الصدور .

وقد اتبعوا في ذلك طريقة متميزة ، تنطلق من كتابة النص على اللوح أولاً، ثم تصحيحه ثانياً ، ليحفظ حفظا أوليا يسمح بسرده من الذاكرة ، وإثر ذلك يتقدم الطالب إلى الأستاذ ، ليشرح له المتن جملة جملة أو بيتا بيتا .

وهذه الخطوات متلازمة مترابطة ، ولا يسمح بتجاوز أي واحدة منها ، لأنها في الحقيقة معبر إلى الحفظ والأخذ بها على هذه الصيغة ، معين على التمكين من ناصية المعرفة ، وكل خرق لها من شأنه أن يؤثر سلبا على سير العملية التربوية، وهذا ما أوضحه المرابط محمذا فال بن متالي بقوله :

كتـــــب إجازة وحفظ الرســـــم قـــــراءة تدريس أخـــــذ العلم
ومـــــن يقدم رتبة عـــــن المحل من ذي المراتب المـــــرام لم ينل

ولأهمية الحفظ في اكتساب العلوم ، طفق القوم ينظِّرون له تنظيرا جادا ، فمن التقاليد المتداولة عندهم لحفظ النص ، استيفاء ما يعرف بـ «عشرة المختار»، وتعني ترديد الدرس اليومي خمسا وخمسين مرة .

ويستعينون على ذلك بنقاط ترسم على أديم الأرض ، في شكل هرم قاعدته عشرة نقاط ، وقمته نقطة واحدة ، وكل ما قرأ الطالب مرة يمحو نقطة ، فإذا استوفى حفظ الدرس بهذه الطريقة ، يقولون إنه لن ينساه بعدئذ .

أما حفظ المعاني فيتركز عندهم على ما يعرف ب « التكرار » ، وقد حضوا

عليه كثيرا ، ودعوا الطلبة إلى أن يعضوا عليه بالنواجذ مرددين قول الشاعر :

خليلي لا تكسل ولا تهمل الدرسا ولا تعط يوما في بطالتها النفســـــا

ولا تترك التكـــــرار فيما حفظته فمن ترك التكرار لابد أن ينســـــى

فالتكرار إذا عنصر أساسي في دراسة المحضرة ، وعبره يستحضر الطالب كل ما صدر عن الشيخ، معيدا لفظه المرة بعد المرة ، مجردا من نفسه مخاطبا يحاوره ويقرأ عليه المحفوظ جهرا .

فالتكرار عندهم حصة مراجعة واستذكار ، بفضلها يكتمل الاستظهار الذي هو أساس ثقافة القوم ، إذ تروى عنهم في هذا الجانب نوادر من النبوغ عجيبة ، فيذكر أن ابن الأمين الشنقيطي أملى كتابه « الوسيط » من ذاكرته، وأن مدينة « تينكي » كانت تؤوي ثلاثمائة فتاة يحفظن الموطأ ، ويقال إن الغلام من قبيلة « المدلش » كان يحفظ المدونة قبل البلوغ ، وكان من القوم أميون لا يعلمون الكتاب ، يغنون على الطبل مقامات الحريري ، وثمة فتيان كثر من الزوايا يحفظون القرآن والشعر الجاهلي والألفية ومختصر خليل ومتونا أخرى قبل البلوغ ! ، ولا ننسى أن الحفاظ الموريتانيين الذين ارتحلوا إلى المشرق هم الذين عرفوا بهذا البلد ورفعوا له ذكره .

٣ – التشويق ووسائل الإيضاح :

لقد اعتمد القوم في التدريس منهجا تربويا ، يقوم على توضيح العبارة واستجلاء المعنى ، وذلك بضرب الأمثلة ، واستخدام أديم الأرض ، باعتباره سبورة تتيح للأستاذ فرصة الشرح والإيضاح ، وهذا ما أكده أحد الباحثين بقوله: « ومن أنجع وسائل الإيضاح التصوير والتشخيص للمعاني المدروسة ، فكما أن التعليم النظامي يهتم بهذا التصوير بالرسم ، فإن المحضرة تهتم بتصويره

بالوسائل المرئية في حياة المجتمع ، وبوضع نقاط في الأرض ، والحكم على كل مجموعة منها ، ويعرف هذا بطرح الصور » .

وقد كان الشيخ يحظيه بن عبد الودود (ت: ١٣٥٨هـ) بارعا في استخدام وسائل الإيضاح ، مكثرا من ضرب الأمثلة ، فكان في دروسه النحوية يشبه عناصر الجملة الاسمية (المبتدأ والخبر) بخيمة مضروبة ، تعتمد على ركيزتين، فإذا دخلت الأفعال النواسخ هذه الخيمة فإنها تسقط الركيزة الخلفية (الخبر)، ومع قدوم الحروف النواسخ تسقط الركيزة الأمامية (المبتدأ) ، ويتم إسقاط الخيمة وإزالة رفعها مع حلول أفعال القلوب .

وعبر هذه الأمثلة تترسخ المعاني في الأذهان ، وتنطبع في الذاكرة .

وقد نبه أحمد محمود (ممو) بن عبد الحميد (ت: ١٣٦٢هـ) على تميز دروس هذا الشيخ ، منتهيا إلى أنه يصوغ لطلبته من العبارات ما يعذب ويسوغ ، مقدما لهم المعنى البعيد في صورة القريب والمحسوس ، يقول :

وكان في إقرائه يصوغ عبارة لفهمهم تسوغ
يريهم المعنى أخا الطموس مبرزا في صورة المحسوس
يضرب الأمثال التي تفهم حتى كأنه لهم مجسم

ونجد أحد الباحثين المعاصرين يؤكد أن أشياخ المحاضر كانوا يعتمدون في تدريسهم على وسائل الإيضاح مركزا بشكل خاص على جهود شيخه المختار بن المحبوب (ت: ١٣٩١هـ) ، متحدثا عن قدرته الفائقة على الإفهام والتبليغ، حيث تنقلب العويصات على يده بيانا ووضوحا ، وتصبح الغوامض شمسا وضياء ، يقول : (كان أسلوبه البديع يجذب المريد إليه ، وكأنه يتتبع طيات قلبه ليبسطها أمام المعارف ، وكأنه يرى نقاط الغموض فيتتبعها بالشرح والتوضيح ،

والأمثلة ووسائل الإيضاح ، حتى تنطبع الحقائق في ذهنه) . وقد حدث الشاعر محمد أشفغ عبد الله (ت: ١٣٥٣هـ) عن روعة تدريس شيخه المرابط محمد سالم بن ألما ، مشيرا إلى أن الطلبة كانوا يشتاقون إلى دروسه اشتياقا ، ويظمئون إليها ظمأ شديدا ، فتصيبهم من الحنين إليها حالة مشابهة لحالة التعطش والرغبة ، التي تصيب القرم المشتاق إلى نكهة اللحم وضراوته . وللتعبير عن تمكن الشيخ من التدريس استخدم الشاعر أسلوبا شعبيا متداولا ، عبرت عنه الجملة الفعلية «يرى الحاضرون النار تضرم» ، فاشتعال النار هو الغاية القصوى عندهم في كل شيء ، فالتدريس إلى أن تشتعل النار معناه التمكن من المادة والإجادة في تدريسها: يقول الشاعر :

في الفقه والنحو شيخي لا نظير له	فكل قـــــرم إلى إقرائـــــه قرم
فإن أتت «طـــــرة» المختار يقرؤها	حتى يرى الحاضرون النار تضرم
وإن أتاه «خليل» يوم مســـــالة	يقول لا غائب مـــــالي ولا حرم
أنا الذي قلت هذا البيت لا ابن أبي	سلمى ، وشيخي به المعنيُّ لا هرم

وفي جانب التشويق ، نشير إلى أن أساتذة المحاضر أدركوا حاجة الطلبة الذين أرهقهم الاستذكار ، إلى محفزات تزود شعورهم المنهك بالاجتهاد طرفة ، وتفيد طبعهم المكدود بالجهد راحة ، فسعوا جهدهم إلى إشاعة جو من الأريحية والإمتاع في الحرم المحضري .

فقد عمل الشيخ الموريتاني على تحطيم كل الحواجز والاعتبارات الشكلية ، التي تفصل بينه وبين طلبته ، وهكذا نجد الأستاذ يداعب طلبته بلطف ، فيرحم المريض ، ويؤانس الصغير بفتل الأذن وعراك الشعر ، وبذلك أصبحت العلاقة بين الشيخ وتلامذته علاقة مودة وزمالة ، وذلك ما أوضحه « ممو » في نظمه

لسيرة الشيخ يحظيه بقوله :

كان لطالـــــب العلـــــوم يرحم لا ســـــيما إذا اعتراه ســـــقم
يؤنســـــه بعرك أذن وشـــــعر وقـــــد يضمـــــه إليـــــه فيسر
ولا يصـــــون كتبه عـــــن طالب وليس دون بابـــــه من حاجب

وللتأكيد على حضور عنصر التشويق داخل المحاضر الموريتانية ، نسوق شهادة طالب سجل خلالها تفاصيل أول لقاء جمعه بشيخه يحظيه ، مشيرا إلى أنه قدم إلى ساحة المحضرة مع ثلة من أترابه ، وفي أول حصة دراسية قربهم الشيخ وقدمهم على غيرهم ، عسى أن يتذوقوا طعم العلم ويفطنوا إلى لذة الدرس ، فيمكثوا ولا يستعجلوا ، يقول هذا الطالب : «قدمت على يحظيه أنا وثلاثة نفر»، والطلاب إذ ذلك كثر فالتفت وقال : « سبكون ذو الخلطة الجايين من ساحل انفطنولهم لا ينكر اعلين » ، وقد تركت هذه العبارة الحسانية صدى طيبا في نفوس هذا الجمع الطلابي ، وحملتهم على الإقامة والجد والمثابرة .

٤ – اختبار المعارف وتقويمها :

ومن الجوانب الإيجابية في المناهج التربوية : ذلك الاهتمام بتقويم المعارف ، وقياس المهارات .

فالطالب يخضع طوال وجوده في الحرم المحضري لأنواع مختلفة من التقويم نوجزها في نقطتين :

أ – تقويم من جانب الأستاذ : وهذا إجراء تلقائي يقوم به شيخ المحضرة دوريا ، ليرصد مستويات الطلبة ويحيط بها خبرا ، مراقبا تطور مؤهلاتهم العلمية والسلوكية معا .

وهو يستعين على ذلك بمناظرات المحضرة وألغازها ، وربما بإسناد بعض

المهام الخاصة إلى أجاويد الطلبة ، كتدريس بعض المتون ، أو استنساخ كتاب ، أو تعليق عليه .

ومما يساعد شيخ المحضرة على تقويم مستويات الطالب ، أنه يعيش معهم في محيط عائلي مفتوح ، آناء الليل وأطراف النهار ! ، يزورونه ويزورهم في أي وقت، يجلس معهم على الأرض فيحدثهم ويحدثونه ، ويجتمعون على مائدة واحدة ، فيأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون ، زد على ذلك سهولة الإحاطة بالطلبة لاطلاع الشيخ على أحوالهم ، وخبرته بوسطهم ومحيطهم .

« وبذلك يكون تقويم الشيخ أقرب إلى الدقة من تقويم الأستاذ أو عميد الكلية ، فالأول درس جوانب شخصية الطالب كلها ، أما الثاني فإنما يلتقي الطالب » إن لقيه « في ساعات لقاءَ أشباحٍ ، قد لا تتآلف فيه الأرواح ، وهو يخاطب الطالب من أعلى كرسي يرمز للمسافات بين المعلم والمتعلم ، فيكون تكريس هذه المسافة حطا من فرص الحوار ، بعد أن أخذ منها الزمان والمكان بنصيب » .

وربما وجه الأستاذ إلى التلميذ تمرينا شفويا ، ليعلم مستواه المعرفي ويجرب ذكاءه ، وهذا ما فعله عبد الودود بن عبد الله الحيبلاوي (ت : ١٢٦٨هـ) حيث خاطب تلميذه وابن عمه محمد عالي (معي) بن سيد (ت : ١٣١٠هـ) قائلا :

قل للذي كان بالتصريف مشتغلا لم يخل من درسه يوما بتكرار

ما وزن نكتل وآرام وأثفية وأينق وعريب ثم ديار

وقد تنعكس الآية ، ، فيسأل الطالب الأستاذ كما نجد مع محمد بن أبو مدين (ت : ١٣٩٥هـ) حيث وجه إلى شيخه محمدن بن المحجوب (ت : ١٣٩٨هـ) لغزا يسأل ضمنه عن « أل » الموصولة يقول :

أبن لي يا شيخي عن اسم معرف بحرف وذاك الحرف كالاسم في اللفظ
وقد أوجبوا حذفا لذا الحرف فلتجب بنظم فإن النظم أســـــهل للحفظ

فأجابه محمدن بقوله :

رأيتك يا من قد غدا شيخ شيخه وأحظاك بالفهم المسدد من يحظي
على لفظ «أل» الوصل في رأي من بها يعرف ذات الوصل أومأت باللحظ

ب – تقويم من جانب الطلبة والمجتمع ، وهذا النمط من التقويم يساير مراحل الدراسة ، ويرافق الطالب في ظعنه وإقامته ، وبذلك فإنه يساعد على ترسيخ المعارف وتعميقها باستمرار ، وغالبا ما يكون التلاميذ هم أصحاب المبادرة فيه ، وهو ظاهرة فريدة في المؤسسات المحضرية ، وكثيرا ما يظهر على شكل ألغاز ومساجلات شعرية ، وبفعله تحولت المحضرة إلى جو معرفي مشحون بالثقافة والحوار ، فاحتدم بساحتها الجدل والخصام .

ومن ذلك مثلاً : ما دار بين أخوين من أبناء محضرة يحظيه ، فقد خاطب أحمد بن المنى الحسني أخاه مبرزا له أهمية النحو قائلا :

لعلـــــم الفقه أفضل مســـــتفاد وبـــــدء العارفين بـــــه قمين
قد أوضـــــح في الشريعة كل لفظ وحـــــض على تعلمـــــه الأمين
ولكـــــن مـــــن دراه بغير نحو به الأحـــــكام دهرا تســـــتبين
فلم ينفعه «عبـــــد الباقي» فيه ولا «الخرشي» الكبير ولا «المعين»

وأجابه أخوه مبينا قيمة الفقه ، مشيرا إلى ضرورة تقديمه على غيره فقال :

لعلـــــم النحـــــو بالتعليم أولى لأن بـــــه الفصاحة تســـــتبين
ولكـــــن كلما بطلـــــت صلاة وصـــــوم أو نـــــكاح أو يمين

فـــــلا «الصيام» يدفعـــــه ولا ما من نحوهم «ريـــــض الحرون»
و«عبد الباقي» هو الشـــــيخ فينا وفي الحال أنشـــــد مـــــا أبين
وكان لنـــــا أبو حســـــن علي أبـــــا بَـــــرًّا، وَنَحْنُ لَـــــهُ بنين

ومن الاختبارات التقليدية المعهودة اختبار القافلة ، فمن عادة الطلبة أن يتجهوا إلى كل عير تمر بالحي يطلبون « حقهم » حسب الأعراف من حمولة العير ، وفي هذه الحالة يحق لأصحاب القافلة أن يمتحنوا الطلبة فيلقون إليهم أسئلة ، فإن وفقوا في الإجابة عنها نالوا نصيبهم كاملا غير منقوص ، وإن لم ينجحوا فإن المنة لأهل العير إن شاؤوا منحوا ، وإن شاؤوا منعوا .

وإذا كان الاختبار صعبا وتمكن الطالب من الإجابة ، بادر الناس إلى إشاعة أمره بينهم ، وربما رصدت له جائزة .

ومن الأعراف المعمول بها ، أن الطالب إذا قدم من المحضرة على أهله امتحن ليعلم الناس مستواه .

فيروى أن سيد محمد وأخاه محمد محمود ابني سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم كانا يدرسان في محضرة ، وعندما عادا إلى الأهل بعث بهما والدهما إلى تلميذ الشريف أحمد الولي ليختبرهما ففعل وقال له : « إن أحدهما معادل لك في العلم والآخر أعلم منك » .

وهذه المزايا مفقودة في المدرسة النظامية .

المبحث الثاني: نواقص المناهج التربوية في المحضرة .

قبل البدء في الحديث عن هذه النواقص ، نشير أولا إلى أنها يسيرة جدا إذا ما قورنت بنواقص المناهج التربوية الأخرى ، فالمنهج التربوي في المحضرة الموريتانية ذو حسنات كثيرة وسيئات محدودة ، ومعلوم أن الحسنات يذهبن السيئات ، ثم إن الأمور نسبية متغيرة ، فهناك مسائل نعدها اليوم سلبية وكانت في الأمس القريب تعد إيجابية .

وفي ما يلي نعرض أهم المسائل التي يمكن اعتبارها نواقص في الدرس المحضري وتوجد إلى حد ما في المدرسة النظامية :

١ - غياب البرمجة والتخطيط :

ويتجسد هذا الأمر في عدم وجود أهداف مسطورة من قبل القائمين على المحاضر ، وهذا ما يجعل تَكَوُّنَ أبنائِها متقطعا ومضطربا وربما معادا مكررا ، فالمتخرجون من هذه المحاضر ، هم في الغالب صور متشابهة لأنهم يصدرون عن محفوظات واحدة ، ولعل ذلك من أسرار تناقص الإبداع والتجديد في صفوف المحضريين .

فالجيل اللاحق في المحاضر مثلا ، لا يختلف عن الأجيال السابقة عليه ، ولا يضيف جديدا إلى منتوجها وإنما يستنسخ ما كانوا يعملون ، دون أن يتجاوزه أو ينقحه أو يعمل فيه العقل .

وغياب البرمجة أدى إلى حرية الطالب ، وهو الذي يختار المادة والموضوع والأستاذ والوقت المناسب وغير ذلك ، وله أن يدرس متنين أو أكثر في آن واحد،

وإن أحب أن يتنقل من متن قبل أن يكمله إلى غيره فله ذلك ، فهذه الحرية المطلقة رغم أهميتها يخشى عليها أن تعود بالسلب على تحصيل الطالب ، فتجره إلى الحيرة والارتباك .

فحبذا لو كانت المحضرة حاضرة بشكل أكثر لتسير طلبتها ، وتتدخل على الأقل في تحديد الحصة الدراسية والجدول الزمني ، ملزمة الطالب بإكمال الكتاب وعدم الانتقال منه إلى غيره .

وفي خضم هذه الحرية المفرطة نلحظ أحيانا كثيرة غياب الشيخ الذي لا يتدخل للدارس في شيء من أموره ، ولا يراقب غيابه « فالطالب في المحضرة رقيب على نفسه مسئول عن اختياره مفوض في شأنه يأتي المحضرة متى شاء ويغيب متى شاء ، ولا ضير عليه إذ لم ترضه دروس الشيخ أن يتركه فورا إلى غيره » .

وهذا الجو الطليق وعدم البرمجة ، منعا المحضرة من إقامة جهاز للمراقبة والعقاب كما هو الحال في المدارس العصرية ، التي يقوم المدرس والمراقب ومجلس تأديب فيها بأدوار تنظيمية أساسية لا غنى عنها ، خاصة في المراحل الأولى من التعليم ؛ لأن الطالب عموما بحاجة إلى أن يراقب ويعاقب ، وينظر إليه على أنه محجور فلا يلقى له الحبل على الغارب ، فالعملية التربوية تحكمها ضوابط علمية وإجراءات عملية لا سبيل إلى تجاوزها ، وهذا ما لم يتوفر للمنهج المحضري في كثير من الأحيان ، بالرغم من أنه خضع لأنظمة تربوية أخرى .

٢ - شيوع المباشرة والتلقين :

لقد كانت ظاهرة التلقين شائعة في المؤسسات التعليمية التقليدية ، ولم تكن المحضرة الموريتانية استثناءا من هذه المؤسسات ، فقد عولت في منهجها التربوي

كثيرا على هذه الظاهرة ، فطبيعة الحياة البدوية والمشاغل اليومية تفرض على الشيخ أن يلقي درسه شفويا في أسلوب من الارتجال والاستعجال ، فلا ضابط للهيئة التي يلقي عليها دروسه ، « فتارة يدرس ماشيا مسرعا، ومرة جالسا في بيته، ومرة في المسجد ، ومنهم من يدرس أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى راجلا كان أو راكبا » .

وربما قدم الشيخ دروسه وهو يتجول داخل بيوت الحي ، يقرأ السلام ويصل الأرحام ، وقد ساعده على ذلك أن علمه معه ، فهو يشرح ويملي غالبا من ذاكرته، وبذلك نعلم أن سمة التلقين حاضرة في الدرس المحضري ، بل هي عنصر ثابت في العملية التربوية عندهم ، لذلك اعتبرها أحد الباحثين من العناصر الأساسية في النظم المحضرية ، وعول عليها في تعريف المحضرة قائلا : « المحضرة جامعة شعبية تلقينية »[1] .

ويحسن في هذا المقام التفريق بين مستويين من التلقين ، أحدهما ممدوح والآخر مذموم ، أما الأول فهو تلقي العلم من أفواه الرجال عن بينة وبصيرة ، وأما الثاني فهو أخذ العلم من أفواه الرجال مصحَّفا أو محرَّفا أو غير مدقق ، دون أن يكون للسامع رأي أو موقف ، وهذا هو التلقين السلبي بعينه ، حيث يقبل الطالب المعارف بروح من التسليم ، دون أن ينتقدها أو يخضعها لميزان العقل .

ومن سلبيات المنهج التلقيني أن الأستاذ هو قطب رحى العملية التربوية ، فهو باثٌّ والطالب مجرد جهاز استقبال ، همه تسجيل المعلومات من غير غربلة ولا تمحيص ، ويبدو أن هذه الظاهرة ألقت بظلالها على المنهج المحضري في البلاد، فأصابته بالرتابة والجمود .

(١) مجلة التعليم مرجع سابق العدد ٣٤ سنة ٢٨ - ١٤٢٤هـ ص٩٨ -١٠٩ مقال لمحمذا بن أحمد بن المحبوب .

منها كذلك عدم الشعور بعنصر الوقت ، فالطالب مثلا قد يقيم بالمحضرة السنين الطوال ، وهو يعيد دراسة ما قرأ من قبل مستأنسا بجو المحضرة ، متلبثا هنالك في حالة تشبه البطالة والفراغ ، وقد يدعوه ذلك إلى أن يعيد دراسة المتون أكثر من مرة ، وفي هذا السياق يذكر أن محمد بن أحمد بن آلا الأنتابي أعاد دراسة الألفية سبع مرات .

ورغم تقديرنا لأهمية الألفية وصعوبة دراستها ، إلا أن هذه الفترة تبدو طويلة بالمقارنة مع المألوف .

٣ – ندرة الممارسة والتطبيق :

وتتجلي الآثار السلبية لهذه الظاهرة في ثقافة العديد من أبناء المحضرة ، ذلك أننا نصادف أحيانا أئمة علماء تخرجوا من المحضرة ، وتمكنوا من النحو واللغة ، وهم مع ذلك لا يقيمون ألسنتهم ، ولا يكادون يبينون .

وهذا الأمر في نظرنا راجع بالأساس إلى غياب الممارسة والتطبيق ، فهم لم يتعودوا الحديث بالفصحى ، لأنهم يقرؤون دروسهم باللهجة الحسانية التي تعودوا سماعها من الأساتذة في قاعة الدرس ، ذلك أن الأستاذ في المحضرة لا يستعمل الفصحى إلا لماما ، كأن يستشهد بآيات كريمة أو حديث نبوي شريف أو ينشد بيتا من الشعر . ومع ذلك وجد التدريس بالفصحى أحيانا في القديم والحديث .

وفي حقيقة الأمر أنّ الشيوخ في الغالب الأعم إنما يدرسون النصوص باللهجة الحسانية ، لذلك فإن عبارات التشويق التي حفظ لنا التاريخ من كلام أئمة القوم في لحظات التدريس ، إنما هي ألفاظ شعبية عامية ، لا صلة لها بالفصحى ، فثمة إذن نوع من القطيعة الكاملة بين النظرية والتطبيق ، بين معارف

القوم ، وواقعهم اللغوي .

وهذا يعكس الأمر بشكل واضح على كتابات العلماء وتآليفهم ! ، وكثرة استئناسهم بالحسانية والأمثلة على ذلك كثيرة .

زد على ذلك أن الكثير من مثقفي المحاضر لم يكن متمكنا من الإنشاء والتحرير ، لذلك ركن القوم كثيرا إلى استعادة النماذج الأسلوبية الجاهزة ، خاصة في مجال الرسائل الإخوانية ، والخطب الرسمية ، فهناك نموذج ثابت يحفظ ليكرر ويعاد في كل مرة ، دون أن يكلف الشخص نفسه عناء التجديد والإبداع .

المبحث الثالث: بين المحضرة والمدرسة .

قد بان مما سبق ، أن فضائل المنهج التربوي في المحضرة قد طغت على نواقصه إجمالا . .

فمن حسنات هذا المنهج أنه يكون الطالب تكوينا علميا ، وجسميا ، وسلوكيا . . ، فالمحضرة بالنسبة للتلميذ هي مدرسة العلم والحياة والأخلاق ، ففي حرمها ينهل من العلم ، وفي أرجائها يتعلم أنواع الخدمة من طبخ وطحن ورعي وخياطة . . . الخ ، وبساحتها يكتسب رفيع الخلال ، وكريم الأخلاق ، فكأين من خصلة حميدة ، لولا المحضرة لضاعت وانمحت من المجتمع .

ثم إن مرونة هذا المنهج جعلت الثقافة الموريتانية تساهم في نقض جدران الجهل والجمود ، واستطاع أبناؤها أن يظهروا ذلك الانحطاط الشائع بالربوع الإسلامية يومئذ ، فأسسوا لأنفسهم مقررات مدرسية خاصة ، ومناهج تربوية متميزة ، تعول على الحفظ والاستظهار ، وتعتمد وسائل الإيضاح والتدرج والترقي ، ساعية إلى تهذيب النشء ، وتثبيت المعلومات ، وتقويم المعارف والمهارات .

وقد كان من أسباب نجاحها أن دوافع طلابها بعيدة عن الانتفاع والطمع، فحوافزها ذاتية من أجل العلم فحسب ، فالطالب المحضري لا ينتظر راتبا ولا شهادة ، والمدرس المحضري لا يجد إلا الحوافز المعنوية[1] .

وبذلك تمكن علماء القوم من التراث الإسلامي ودرسوا ما فيه ، ومع ذلك

(١) المنارة والرباط ص ٤٤٧-٤٤٨ .

كله نشير إلى أن المنهج التربوي في هذه المحاضر لم يخل من بعض الهنات القليلة ، كشيوع المباشرة والتلقين ، وغياب البرمجة والتخطيط ، وندرة الممارسة والتطبيق .

كما كان للمدرسة النظامية مشاكلها المعقدة ، التي تزداد سنة بعد سنة ، منها تدني المستويات للمدرس والطالب ، وتدني مكانة العلم في النفوس ، وهوان رجاله وانعدام الثقة بينهم وبين التلاميذ ، حتى إن أساتذة التعليم المدرسي قد يتعرضون للضرب والإهانات ، لأن الطالب يشعر أنه في سجن قسري يريد التخلص منه ، مع أن بعض الطلاب يجد السكن والمأوى ، ومع ذلك يظهر التبرم والاحتجاج لضعف الدوافع الذاتية ، وغياب الجو الأخوي الحنون، بعكس الطالب المحضري .

وقد حرم التعليم النظامي فئات كثيرة لم تستطع الالتحاق به ، مما أدى إلى فُشُوِّ الأمية ، وقد كان التعليم التقليدي سهلا ميسورا، لا يطرد طلابه ولا يغلق بابه .

ولا شك أن للتعليم المدرسي حسناته وميزاته ، وقد حاولت بعض الجهات الجمع بين الطريقتين ، وأسست لذلك مدارس ومعاهد ، كمعهد ابن عباس ، ومدارس الفلاح ، ومعهد خالد ، والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، وتوجد تجارب حديثة جديرة بالاهتمام ، كالمحضرة النموذجية ، ومركز تكوين العلماء[1] .

---

(١) هو مركز واعد ، يشرف عليه فضيلة العلامة الشيخ محمد الحسن ولد الددو حفظه الله، ومجموعة من الدعاة والعلماء ، لتكوين رواحل علمية ودعوية ، وقد أسس ١٩٩٨م وانطلق ٢٠٠٣م ، ويهتم بحفظ المتون ، والدراسات المنهجية ، والدورات التكوينية، والتدريب على التدريس والدعوة ، وتنمية روح الإبداع والإخاء ، وترسيخ العقيدة الصحيحة والولاء للدين ويهدف إلى إخراج العلماء الربانين المخلصين لينتشروا في مناكب الأرض حاملين الهداية والنور .

وقد حاولت هذه التجارب الجديدة تعديل أزمة المناهج ، وتطوير المستويات، وعلاج أزمة الاستيعاب وحل أزمة الموارد المالية .

كما أتاحت لطلاب المحضرة الاندماج في الحياة والحصول على شهادات ومؤهلات[1] .

(١) المنارة والرباط ص ٤٥٠ .

فهرس الموضوعات

الموضوع **صفحة**

ترجمة الشيخ سليم الشنقيطي -رحمه الله- ٥

رثاء الشيخ سليم الشنقيطي -رحمه الله- ١٧

مقدمة ٢٧

آداب طالب العلم ٣١

تمهيد : في نشأة التعليم ٤١

الفصل الأول: المحضرة تعريفها ونشأتها وتطورها وخصائصها ٤٥

المبحث الأول: تعريف المحضرة ٤٧

المبحث الثاني: نشأة وتطور المحضرة ٥١

المبحث الثالث: خصائص المحضرة ٥٧

المطلب الأول: خاصية الجامعة الشعبية ٥٧

المطلب الثاني: خاصية البداوة والارتحال ٥٩

المطلب الثالث: خاصية طوعية الممارسة ٦٥

الفصل الثاني: أثر المحضرة في تطوير الثقافة ٦٧

المبحث الأول: أثر المحضرة في تطوير الثقافة العلمية ٦٩

المطلب الأول: أهم سمات تطوير الثقافة العلمية ٦٩

المطلب الثاني: دور انتقاء المقررات في تطوير الثقافة العلمية ٧٨

المبحث الثاني: أثر المحضرة في تطوير الثقافة العملية ٨٤

المطلب الأول: الأثر السياسي (المقاومة العسكرية والثقافية) ٨٤

المطلب الثاني: الأثر الاجتماعي (تكوين قيادات فاعلة) ٨٨
المطلب الثالث: الأثر التربوي (تضحية العالم) ٩٢
المطلب الرابع: البيئة المحضرية (الاحتساب والإيثار) ٩٦
الفصل الثالث: خصائص المنهج المحضري ١٠٣
المبحث الأول: الخاصة الأولى: التدرج ١٠٥
المبحث الثاني: الخاصة الثانية: التفرغ للفن الواحد ١١٠
المبحث الثالث: الخاصة الثالثة: اعتماد الحفظ.....١١٣
المبحث الرابع: الخاصة الرابعة: شمول الثقافة المحضرية ١٢٣
مشارب المحضرة من الناحية الفكرية ١٣٢
أولا: التيار السلفي..... ١٣١
ثانيا: مدرسة المعقولات الأشعرية ١٣١
ثالثا: التصوف الطرقي ١٣٢
الفصل الرابع: المناهج المحضرية تقييم ومقارنة ١٣٧
المبحث الأول: فضائل المنهج المحضري ١٣٩
المبحث الثاني: نواقص المناهج التربوية في المحضرة.....١٤٩
المبحث الثالث: بين المحضرة والمدرسة ١٥٤
فهرس الموضوعات ١٥٧